هذا الدين

سيد قطب

هذا الدين

دار الشروق

© دار الشروق

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣٢٣٨٢٨ برقيا : داشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني هاتف : ٥٤٣١٤ برقيا : شروق القاهرة

منهج للبشر

هناك حقيقة أولية عن طبيعة هذا الدين ، وطريقة عمله في حياة البشر . . حقيقة أولية بسيطة . . ولكنها مع بساطتها ، كثيرا ماتنسى ، أو لاتدرك ابتداء . فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين : حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي . حاضره ومستقبله كذلك !

إن البعض ينتظر من هذا الدين — مادام منزلا من عند الله — أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب ! ودون أي اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقاتهم الفطرية ، ولواقعهم المادي . في أية مرحلة من مراحل نموهم ، وفي أية بيئة من بيئاتهم .

وحين لايرون أنه يعمل بهذه الطريقة ، وحين يرون أن الطاقة البشرية المحدودة ، والواقع المادي للحياة الإنسانية ، يتفاعلان معه ، فيتأثران به — في فترات — تأثرا واضحا ، على حين أنهما في فترات أخرى يؤثران تأثيرا مضادا لاتجاهه ، فتقعد بالناس شهواتهم وأطماعهم ، وضعفهم ونقصهم ، دون تلبية هتاف هذا الدين ، أو الاتجاه معه في طريقه . .

حين يرون هذا فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها — مادام هذا الدين منزلا من عند الله — أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية

المنهج الديني للحياة وواقعيته . أو يصابون بالشك في الدين إطلاقا !

وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد أساسي : هو عدم إدراك هذا الدين وطريقته ، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة .

• • •

إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية . يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية ؛ وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في كل بيئة ، ويبدأ العمل من النقطة التي يكون البشر عندها حينما يتسلم مقاليدهم . ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود طاقتهم البشرية ، وبقدر مايبذلونه من هذه الطاقة .

وميزته الأساسية : أنه لا يغفل لحظة ، في أية خطة وفي أية خطوة ، عن فطرة الإنسان وحدود طاقته ، وواقع حياته المادي أيضا . وأنه — في الوقت ذاته — يبلغ به — كما تحقق ذلك فعلا في بعض الفترات ، وكما يمكن أن يتحقق دائما كلما بذلت محاولة جادة — إلى مالم يبلغه أي منهج آخر من صنع البشر على الإطلاق . وفي يسر وراحة وطمأنينة واتسال .

ولكن الخطأ كله — كما تقدم — ينشأ من عدم إدراك طبيعة هذا الدين أو من نسيانها . ومن انتظار الخوارق المجهولة الأسباب على يديه ... تلك الخوارق التي تبدل فطرة الإنسان ، ولا تبالي طاقاته المحدودة ، ولا تحفل واقعه المادي البيئي !

أليس هو من عند الله ؟ أليس الله قادراً على كل شيء ؟ فلماذا إذن

يعمل هذا الدين — فقط — فى حدود الطاقة البشرية المحدودة ؟ وتتأثر نتائج عمله بالضعف البشرى ؟ بل لماذا يحتاج أصلا إلى الجهد البشرى ؟ ثم . . لماذا لا ينتصر دائما ، ولا ينتصر أصحابه دائما ؟ لماذا تغلب نزعة الضعف والشهوات والواقع المادى على رفرفته وشفافيته وانطلاقه أحيانا ؟ ولماذا يغلب أهل الباطل على أصحابه — وهم أهل الحق — أحيانا !!

وكلها — كما ترى — أسئلة وشبهات ، تنبع ابتداء من عدم إدراك الحقيقة الأولية لطبيعة هذا الدين وطريقته أو من نسيانها !

* * *

إن الله قادر — طبعا — على تبديل فطرة الإنسان ، عن طريق هذا الدين أو عن غير طريقه . ولكنه — سبحانه — شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة لحكمة يعلمها . وشاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والرغبة فى الهدى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » . . وشاء أن تعمل فطرة الإنسان دائما ، ولا تمحى ولا تعطل : « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » . . وشاء أن يتم تحقيق منهجه الإلهى للحياة البشرية عن طريق الجهد البشرى ، وفى حدود الطاقة البشرية : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . . «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» . وشاء أن يبلغ الإنسان من هذا كله بقدر ما يبذل من الجهد ، وما ينفق من الطاقة ، وما يصبر على الابتلاء فى تحقيق هذا المنهج الإلهى القويم ، وفى دفع الفساد عن نفسه وعن الحياة من حوله : « أحسب الناس أن

يتركوا أن يقولوا : آمنا . وهم لايفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » ..

وليس لأحد من خلق الله أن يسأله — سبحانه — لماذا شاء هذا كله على هذا النحو الذى أراده فكان . ليس لأحد من خلقه أن يسأله — سبحانه — مادام أن أحدا من خلقه ليس إلها ، وليس لديه العلم — ولا إمكان العلم — بالنظام الكلى لهذا الكون ؛ ومقتضيات هذا النظام فى طبيعة كل كائن فى هذا الوجود .

ولماذا ؟ — فى هذا المقام — سؤال لايسأله مؤمن جاد ، ولا يسأله ملحد جاد .. المؤمن لا يسأله . لأنه أكثر أدبا مع الله — الذى يعرفه بذاته وصفاته وخصائصه — وأكثر معرفة بطبيعة إدراكه البشرى وحدوده ، وأنه لم يهيأ للعمل فى هذا المجال . . والملحد الجاد لا يسأله ، لأنه لايعترف بالله ابتداء . فإن هو اعترف بألوهيته عرف معها أن هذا شأنه — سبحانه — ومقتضى ألوهيته ، وأنه : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . لأنه وحده المهيمن العليم بما يفعل .

ولكنه سؤال قد يسأله هازل مائع . لاهو مؤمن جاد ، ولاهو ملحد جاد . ومن ثم لا يجوز الاحتفال به ، ولا أخذه مأخذ الجد .. وقد يسأله جاهل بحقيقة الألوهية وخصائصها . فالسبيل لتعليم هذا الجاهل ليس هو الإجابة المباشرة . إنما هو تعريفه بحقيقة الألوهية وخصائصها . . حتى يعرفها ويسلم بها فهو مؤمن . أو يجحدها وينكرها فهو ملحد .. وبهذا ينتهى الجدل . إلا أن يكون مراء ! والمسلم منهى عن المضى فى الجدل حين يكون مراء !

والخلاصة التي ننتهي إليها من هذا الاستطراد في هذه الفقرة : هي أنه ليس لأحد من خلق الله أن يسأله — سبحانه — لماذا شاء أن يخلق « الإنسان » بهذه الفطرة ؟ ولماذا شاء أن يبقى فطرته هذه عاملة لا تمحى ولا تعطل ؟ ولماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي لحياته البشرية يتحقق عن طريق الجهد البشري ، وفي حدود الطاقة البشرية ، والواقع المادي لحياته ؟ ولم يشأ أن يجعله يتم بوسيلة خارقة ، وبأسباب مبهمة غامضة!

ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقائق ويعرفها ؛ ويراها وهي تعمل في واقع الحياة البشرية . ويفسر أحداث التاريخ البشري على ضوئها . فيفقه خط سيرها التاريخي من ناحية ؛ ويعرف كيف يواجه هذا الخط ويوجهه من ناحية أخرى . ويعيش مع حكمة الله وقدره ، فينطبع بهما الانطباع الصحيح من ناحية ثالثة .

* * *

هذا المنهج الإلهي ، الذي يمثله « الإسلام » في صورته النهائية ، كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يتحقق في الأرض ، وفي دنيا الناس ، بمجرد تنزله من عند الله . لا يتحقق بكلمة : « كن » الإلهية ، مباشرة لحظة تنزله . ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه . ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب . إنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر . تؤمن به إيمانا كاملا ، وتستقيم عليه — بقدر طاقتها — وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك ، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك . تجاهد الضعف البشري

والهوى البشرى فى داخل النفوس . وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف فى وجه الهدى . . وتبلغ — بعد ذلك كله — من تحقيق هذا المنهج ، إلى الحد الذى تطيقه فطرة البشر ، والذى يهيئه لهم واقعهم المادى . على أن تبدأ بالبشر من النقطة التى هم فيها فعلا ؛ ولا تغفل واقعهم ، ومقتضياته فى سير وتتابع مراحل هذا المنهج الإلهى . . ثم تنتصر هذه الجماعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة . وتنهزم فى المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة . . بقدر ما تبذل من الجهد . وبقدر ما تتخذ من الوسائل المناسبة للزمان ولمقتضيات الأحوال . وقبل كل شيء .. بمقدار ما تمثل هى ذاتها من حقيقة هذا المنهج ؛ ومن ترجمته ترجمة عملية فى واقعها وسلوكها الذاتى

* * *

هذه هى طبيعة هذا الدين وطريقته . وهذه هى خطته الحركية ووسيلته .. وهذه هى الحقيقة التى شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة وهو يقول لها : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . . « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » . . .

وهذه هى الحقيقة التى شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة فى غزوة أحد حينما قصرت فى تمثيل حقيقة هذا الدين فى ذوات أنفسها فى بعض مواقف الغزوة . وحينما قصرت فى اتخاذ الوسائل المناسبة فى بعض مواقفها . وحينما غفلت عن هذه الحقيقة الأولية أو نسيتها ؛ وفهمت أن من مقتضى

كونها مسلمة أن تنتصر حتما! فقال لها الله سبحانه: «أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنى هذا؟ قل: هو من عند أنفسكم». وقال لها: «ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون: منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة. ثم صرفكم عنهم ليبتليكم»..

ولقد تعلمت الجماعة المسلمة هذه الحقيقة في هذه الغزوة، لا بالكلام ولا بالعتاب؛ ولكن تعلمتها مع هذا بالدماء وبالآلام. ودفعت ثمنها غاليا: هزيمة بعد نصر. وخسارة بعد غنم. وجراحا لم تكد تدع أحدا معافى. وشهداء كراما فيهم سيد الشهداء حمزة — رضي الله عنه — وأغلى من ذلك كله وأشد وقعا على الجماعة المسلمة كلها: جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشج وجهه الكريم، وكسر رباعيته في فمه، ووقوعه لجنبه في الحفر التي حفرها أبو عمرو الفاسق حليف قريش مكيدة للمسلمين؛ وجهد المشركين له — صلى الله عليه وسلم — وهم يطاردونه، وهو مفرد في نفر من أصحابه استشهدوا واحدا بعد واحد وهم يذودون عنه؛ ويترس أحدهم — أبو دجانة — بظهره عليه يقيه نبل المشركين، والنبل يقع في ظهره فلا يتحرك.. حتى ثاب إليه المؤمنون من هزيمتهم وحيرتهم، وهم يتلقون هذا الدرس الشاق المرير!

• • •

على أنه من الملاحظ الواضح أن ترك المنهج الإلهي للجهد البشري، يتولى تحقيقه في حدود الطاقة البشرية، يصلح النفوس البشرية، ويصلح

الحياة البشرية . . نقول هنا لا نعلل به مشيئة الله — سبحانه — فى جعل الأمر على ما جعله . ولكن لنسجل — فقط — ملاحظة واقعية لآثار هذه المشيئة فى حياة العباد.

ذلك أن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها فى قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس فى أمر هذا الإيمان . يجاهدتهم بالقلب بكراهة باطلهم وجاهليتهم والعزم على نقلهم منها إلى الحق والإسلام . ويجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان ، ورفض باطلهم الزائف ، وتقرير الحق الذى جاء به الإسلام . ويجاهدتهم باليد بالدفع والإزالة من طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة الباغية والبطش الغشوم ! . . وحتى يتعرض فى تلك المجاهدة للابتلاء والأذى ، والصبر على الابتلاء والأذى ، والصبر على الهزيمة والصبر على النصر أيضا — فالصبر على النصر أشق من الصبر على الهزيمة . ثم يثبت ولا يرتاب ؛ ويستقيم ولا يتلفت ؛ ويمضى فى طريق الإيمان راشدا صاعدا .

حقيقة الإيمان لا يتم تمامها فى قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس فى أمر هذا الإيمان لأنه يجاهد نفسه كذلك فى أثناء مجاهدته للناس ؛ وتتفتح له فى الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبدا وهو قاعد آمن ساكن ، وتتبين له حقائق فى الناس وفى الحياة لم تكن لتتبين له أبدا بغير هذه الوسيلة . ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته ، وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته ، ما لم يكن ليبلغه أبدا بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة .

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم

ببعض لفسدت الأرض » . وأول ما تفسد: فساد النفوس بالركود الذي تأسن معه الروح ؛ وتسترخي معه الهمة ، ويتلفها الرخاء والطراوة . ثم تأسن الحياة كلها بالركود . أو بالحركة في مجال الشهوات وحدها . كما يقع للأمم حين تبتلى بالرخاء !

فهذه كذلك من الفطرة التي فطر الله الناس عليها . فقد جعل صلاح هذه الفطرة في المجاهدة لإقرار منهج الله للحياة البشرية ، عن طريق الجهد البشري ، وفي حدود الطاقة البشرية كذلك .

ثم إن هذه المجاهدة وما يصاحبها من الابتلاء ، هي الوسيلة العملية لتمحيص الصفوف — بعد تمحيص النفوس — ولتنقية الجماعة من المعطلين والمعوقين والمرجفين ؛ ومن ضعاف النفوس والقلوب ، ومن المخادعين والمنافقين والمرائين . .

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة وهي تتعرض للامتحان ؛ وتتعرض للابتلاء ؛ وتتكشف فيها خفايا النفوس ؛ كما تتميز فيها الصفوف . تحت مطارق الابتـــلاء ومشقة التجربة ، ومرارة الآلام .

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة ، وهو يعقب على أحداث الغزوة . فيقول لها ، ردا على سؤال المسلمين : « أنى هذا ؟ » « قل : هو من عند أنفسكم » . . ثم يعقب على هذا بقوله : « وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله . وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا » . . « وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من

الطيب . . . « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » . . . كل ذلك ليستقر في حسهم أنه مع أن ما أصابهم كان بسبب تقصيرهم في تمثيل حقيقة الإيمان كاملة في مشاعرهم وتصرفاتهم في الغزوة . . فإنه كذلك كان لخيرهم في النهاية بفضل الله عليهم ، وتجاوزه عن تقصيرهم : واتخاذ نتائجه مادة لتعليمهم وتمحيصهم وتطهيرهم ، وتمييز صفوفهم . . وكله خير لأنفسهم ولحياتهم في نهاية المطاف . .

ولا يتم تمام القول في طبيعة هذا الدين وطريقته ، حتى نضيف إلى تلك الحقيقة التي نرجو أن نكون قد كشفنا عنها في هذا البيان . . تكملة ضرورية لها لابد من بيانها كذلك :

إن كون هذا المنهج الإلهي متروك تحقيقه للجهد البشري في حدود الطاقة البشرية ، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في شتى المدارج ، وشتى البيئات . . لا يعني استقلال الإنسان نهائياً بهذا الأمر ؛ وانقطاعه عن قدر الله وتدبيره ، ومدده وعونه وتوفيقه وتيسيره . . فتصور الأمر على هذا النحو مخالف في أصوله لطبيعة التصور الإسلامي .

ولقد بينا فيما سبق أن الله — سبحانه — يساعد من يجاهد للهدى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » . . وأنه يغير حال الناس حين يغيرون ما بأنفسهم ، وأنه لا يغير ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وهذان النصان يوضحان لنا العلاقة بين الجهد البشري الذي

يبذله الناس، وعون الله ومدده الذي يسعفهم به ؛ فيبلغون به ما يجاهدون فيه من الخير والهدى والصلاح والفلاح .

فإرادة الله هي الفاعلة في النهاية : وبدونها لا يبلغ « الإنسان » بذاته شيئاً ، ولكن هذه الإرادة تعين من يعرف طريقها ، ويستمد عونها ، ويجاهد في الله ليبلغ رضاه .

وقدر الله — مع ذلك كله — هو الذي يحيط بالناس والأحداث : وهو الذي يتم وفقه ما يتم من ابتلاء ؛ ومن خير يصيبه الناجحون في هذا الابتلاء .

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله — سبحانه — أن يعلمها للجماعة المسلمة . وهو يبين لها في التعقيب على غزوة أحد أسباب النصر وأسباب الهزيمة — من عملها — ثم يكشف لها عن حكمة الله من وراء الابتلاء كله ، ومن وراء النصر والهزيمة : وعن تدبيره كذلك ، « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه . حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » . وليعرفهم سنته الشاملة . ومردها في النهاية إلى مشيئته الطليقة وقدره النافذ من وراء الأسباب والوقائع : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا . ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

وإذن فهو — في النهاية — تدبير الله ومشيئته وقدره ، ليتم ما يريده

من وراء الأسباب والأحداث ، وهو الأمر الذى لا يسأل عنه سبحانه : لأنه شأنه الإلهى ، الذى لا يسأل عنه .. وهذه هى حقيقة الإيمان الكبرى التى لا يتم فى النفس إلا باستقرارها فيها ، واطمئنانها إليها .. وهى التكملة التى لا بد منها لما قررناه فى هذا الفصل عن طبيعة هذا الدين وطريقته .. بلا تعارض بين طرفى هذه الحقيقة فى حس المسلم ، الذى يتذوق قلبه حقيقة هذا الدين ، كما أنزلها الله . ولا يعارضها بتصورات ومقررات ليست مستقاة من كتاب الله ..

منهجٌ مُتَفَرِّد

والآن يقول قائل : إذا كان الإسلام ، وهو منهج الله للحياة البشرية ، لا يتحقق فى الأرض وفى دنيا الناس ، إلا بالجهد البشرى ، وفى حدود الطاقة البشرية ، وفى حدود الواقع المادى للحياة الإنسانية فى البيئات المختلفة .. فما ميزته إذن على المناهج البشرية ، التى يضعها البشر لأنفسهم، ويبلغون منها مايبلغه جهدهم ، فى حدود طاقتهم وواقعهم ؟ ولماذا يجب أن نحاول تحقيق ذلك المنهج ، وهو يحتاج إلى الجهد البشرى ككل منهج ؟ فلا يتحقق منه شىء بمعجزة خارقة ، ولا بقهر إلهى ملزم ؟ وهو يتحقق فى حيـــاة الناس ، فى حدود فطرتهم البشرية ، وطاقتهم العادية ، وأحوالهم الواقعية ؟ !

• • •

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ابتداء لنحقق لأنفسنا صفة الإسلام . فركن الإسلام الأول : أن نشهد أن لا إله إلا الله . وأن محمداً رسول الله . . وشهادة أن لا إله إلا الله ، معناها القريب : إفراد الله — سبحانه — بالألوهية ، وعدم إشراك أحد من خلقه معه فى خاصية واحدة من خصائصها .. وأولى خصائص الألوهية : حق الحاكمية المطلقة ، الذى ينشأ عنه حق التشريع للعباد ؛ وحق وضع المناهج لحياتهم ؛ وحق وضع القيم التى تقوم عليها هذه الحياة . فشهادة « أن لا إله

إلا الله ، لا تقوم ولا تتحقق إلا بالاعتراف بأن لله وحده حق وضع المنهج التي تجري عليه الحياة البشرية ؛ وإلا بمحاولة تحقيق ذلك المنهج في حياة البشر ، دون سواه . . وكل من ادعى لنفسه حق وضع منهج لحياة جماعة من الناس ، فقد ادعى حق الألوهية عليهم ؛ بادعائه أكبر خصائص الألوهية . وكل من أقره منهم على هذا الادعاء فقد اتخذه إلها من دون الله ، بالاعتراف له بأكبر خصائص الألوهية . . وشهادة أن محمداً رسول الله ، معناها القريب : التصديق بأن هذا المنهج الذي بلغه لنا من الله ، هو حقاً منهج الله للحياة البشرية ، وهو وحده المنهج الذي نحن ملزمون بتحقيقه في حياتنا وفي حياة البشر جميعاً .

ومن ثم فنحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ؛ لنحقق لأنفسنا صفة الإسلام التي ندعيها . وهي لا تتحقق إلا بشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . وهذه الشهادة لا تقوم إلا بإفراد الله بالألوهية . إفراده بحق وضع منهج الحياة . ومحاولة تحقيق ذلك المنهج الذي جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله .

• • •

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لأسباب تتعلق بالمنهج ذاته . فهو — وحده — المنهج الذي يحقق كرامة الإنسان ، ويمنحه الحرية الحقيقية ، ويطلقه من العبودية . . هو — وحده — الذي يحقق له التحرر الكامل الشامل المطلق — في حدود إنسانيته وعبوديته لله — التحرر من العبودية للناس بالعبودية لله رب الناس . . وما من منهج آخر

فى الأرض يحقق هذه الخاصية إلا الإسلام .. ذلك أنه بربانيته ، التى تفرد الله — سبحانه — بالألوهية ، ومن ثم تفرده — سبحانه — بحق الحاكمية التى تشرع للناس منهج حياتهم .. يجعل للناس إلها واحدا ، وسيدا واحدا . ويمنع أن يكون بعضهم آلهة لبعض : لهم حق الحاكمية بعضهم على بعض ؛ ولهم حق السيادة بعضهم على بعض ، فى مقابل العبودية التى يتسم بها من يقرون لهؤلاء الآلهة بخصائص الألوهية !

وفى هذه الخاصية يتفرد المنهج الإلهى . لا باللفظ والدعوى ، ولكن بالحقيقة والواقع .. ومن ثم كانت دعوة الرسل جميعا — عليهم الصلاة والسلام — هى إفراد الله بالألوهية ؛ وإنكار كل خاصية من خصائصها على غير الله — سبحانه — من عبيده ، الذين يتألهون ، فيدعون حق وضع المناهج لحياة عباد الله : ويقرهم على هذا الادعاء من لا يؤمنون بوحدانية الله !

ولقد قال الله عن اليهود والنصارى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا . لا إله إلا هو . سبحانه عما يشركون » .. وهم لم يكونوا يعبدون الأحبار والرهبان ؛ إنما كانوا — فقط — يقرون لهم بحق التشريع لهم من دون الله ، وبحق وضع المناهج لحياتهم بالتشريع . فقال الله عنهم : إنهم اتخذوهم أربابا . وإنهم خالفوا عن أمر الله لهم بالتوحيد . وإنهم مشركون ..

روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق ، عن عدى بن

حاتم — رضى الله عنه — أنه لما بلغته دعوة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فر إلى الشام . وكان قد تنصر فى الجاهلية . فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم منّ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على أخته وأعطاها . فرجعت إلى أخيها فرغّبته فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فتقدم عدى إلى المدينة ، وكان رئيسا فى قومه طيء . أبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم . فتحدث الناس بقدومه . فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم — وفى عنق عدى صليب من فضة — وهو يقرأ هذه الآية : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » .. قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : « بلى ! إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » !

وقال السدى: استنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا » ، أى الذى إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ ...

والإسلام وحده هو الذى يفرد الله — سبحانه — بالعبادة ، حين يفرده بالحاكمية وحق وضع المنهج لحياة الناس . ومن ثم فهو — وحده — الذى يطلق الناس من العبودية لغير الله ... ولهذا فنحن ملزمون بمحاولة تحقيق هذا المنهج دون سواه !

• • •

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج، لأنه — بربانيته — هو المنهج الوحيد المبرأ من نتائج الهوى الإنسانى، والضعف الإنسانى، والرغبة الإنسانية فى النفع الذاتى: وفى تحقيق ذلك النفع عن طريق التشريع. لشخص المشرع. أو لأسرته. أو لطبقته. أو لشعبه. أو لجنسه.. فواضع ذلك المنهج هو الله. وهو — سبحانه — رب البشر أجمعين. فهو لايشرّع ليحابى نفسه! ولا ليحابى طبقة من البشر على طبقة! ولا ليحابى شعبا على شعب! ولا ليحابى جنسا على جنس!

والتشريع البشرى، تشريع يضعه فرد حاكم، أو أسرة حاكمة، أو طبقة حاكمة، أو أمة حاكمة، أو جنس حاكم... يستحيل — بحسب فطرة الإنسان — أن يتجرد من الهوى، ومن مراعاة مصلحة واضع التشريع.

فأما حين يكون منهج الله هو الذى يحكم حياة البشر، فتنتفى هذه الصفة ويتحقق العدل الحقيقى الشامل الكامل، الذى لا يملك منهج آخر من مناهج البشر أن يحققه فى صورته هذه. لأنه ليس بين هذه المناهج كلها ما يمكن أن يتجرد من عوامل الهوى الإنسانى، والضعف الإنسانى والحرص على المصلحة الذاتية فى صورة من الصور.

وقد يخطر لقائل أن يقول حين يسمع التوجيهات الربانية الرفيعة فى إقرار هذا العدل الشامل الكامل، الذى لا يتأثر بالهوى، ولا يتأثر بالعصبية والقرابة من مثل قوله تعالى للجماعة المسلمة: «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط؛ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى. واتقوا الله. إن الله خبير بما تعملون»..

قد يخطر لقائل أن يقول : وما هي الضمانات التي تجعل الجماعة المسلمة تحقق هذا العدل الذي يدعوها الله إليه ، ويأمرها به ؟

والضمانة الحقيقية للنهج الإسلامي كله كامنة في ضمير المسلم : منبعثة من إيمانه . فمتى وجد الإيمان بهذا الدين وجدت معه أقوى ضماناته . والمسلمون يعلمون من دينهم أن مقومات وجودهم وانتصارهم والتمكين لهم في الأرض ، تقوم كلها على الوفاء بهذه التوجيهات ؛ وإلا تعرض وجودهم للزوال ، وانقلب انتصارهم هزيمة ، وذهبت ريحهم وذلوا . وهم يسمعون الله — سبحانه — يقول لهم : « ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور » .. ويوقنون أن الله — سبحانه — لا يحابيهم حين يحيدون عن الطريق .

والجماعة المسلمة ضمانة حقيقية لتحقيق هذه التوجيهات . فهي تقوم على هذه العقيدة . وتأخذ نفسها بالتزام ما ألزمها الله . وترى في كل إهمال أو تفريط نذيراً بسوء يلحقها كلها ، ولا يصيب الذين ظلموا منها خاصة ..

ومن ثم نحن ملزمون بتحقيق ذلك المنهج ، لتحقيق ذلك العدل الشامل الكامل ، الذي لا يتحقق إلا في ظل هذا المنهج المتفرد .

° ° °

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ، لأنه — وحده — المنهج المبرأ من نتائج الجهل الإنساني والقصور الإنساني — براءته من نتائج الضعف البشري — فواضعه هو خالق هذا الكائن الإنساني ، العليم بما

يصلحه ويصلح له . وهو المطلع على خفايا تكوينه وتركيبه ، وخفايا الملابسات الأرضية والكونية كلها فى مدى الحياة البشرية كذلك .. فإذا وضع له منهجاً كان ملحوظا فى هذا المنهج كل هذه العوامل التى يستحيل على البشر أفرادا ومجتمعين فى جيل من الأجيال - وفى جميع الأجيال كذلك - أن يطلعوا عليها . لأن بعضها فى حاجة إلى استحضار جميع التجارب والظواهر للحياة البشرية فى جميع أجيالها السابقة والحاضرة ، والمستقبلة التى لم توجد بعد - وهذا مستحيل - وبعضها فى حاجة إلى الاطلاع على كل خفايا الكون المحيطة بالإنسان - وهذا مستحيل كذلك - وذلك إلى قصور الإدراك البشرى ذاته عن الحكم الصحيح المطلق حتى على ما يمكن أن تستحضر فيه التجارب والظواهر ! لأنه محكوم بطبيعته الجزئية - غير المطلقة - ومحكوم بمؤثرات الهوى والضعف الأخرى ... فليس هو إذن بالحكم فى منهج يوضع « للكائن الإنسانى » !

ومن ثم يقول الله تعالى : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض » .. ويقول : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ..

والناس كلهم لا يعلمون .. لا يعلمون ذلك العلم المطلق ، الذى يحتاج إليه وضع منهج للحياة البشرية .. ومن ثم لا يكون لهم إلا الهوى وإلا الجهل حين يتصدون لما ليس من شأنهم ، وما ليس من اختصاصهم . . فوق ادعائهم خاصية من خصائص الألوهية .. وهو إثم عظيم . وشر عظيم !

* * *

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لأنه ـ وحده ـ المنهج الذى يقوم نظام الحياة البشرية فيه على أساس من التفسير الشامل للوجود. ولمكان الإنسان فى هذا الوجود. ولغاية الوجود الإنسانى — كما هى فى الحقيقة — لا كما يرسمها الجهل والضعف والهوى البشرى، فى أى تصور آخر غير ربانى.

وهذا هو الأساس السليم القويم الوحيد لقيام نظام للحياة البشرية على جذوره الطبيعية. فكل نظام لحياة البشر لا يقوم على أساس من هذا التفسير الشامل لا يقوم على جذوره الطبيعية؛ وهو نظام مصطنع لا يمكن أن يعيش طويلا. وهو مصدر شقاء للبشر طوال مدة قيامه فيهم، حتى تحطمه فطرتهم وترجع إلى الأصل السليم القويم.

وهذا التفسير الذى يتضمنه ذلك المنهج الإلهى هو — وحده — التفسير الصحيح. لأنه من صنع خالق الوجود، وخالق الإنسان، العليم بحقيقة الوجود وبحقيقة الإنسان.. وكل تفسير آخر للوجود، ولمقام الإنسان فيه، ولغاية الوجود الإنسانى من صنع الإنسان نفسه، هو تفسير قاصر، لأن الوجود أكبر من الإنسان. فهناك استحالة فى أن يصنع له الإنسان تفسيراً شاملا. ولأن تحديد غاية الوجود الإنسانى تحتاج إلى علم خالق هذا الإنسان وما أراده من خلقه. كما تحتاج إلى تجرد من الهوى فى تحديد هذه الغاية! الأمر الذى لا يتيسر للإنسان أبدا.

والذى يراجع سجل الفلسفة التى حاولت تفسير الوجود، وتفسير مكان الإنسان فيه، وتفسير غاية الوجود الإنسانى، يقع على ركام عجيب.

فيه من المضحكات الساذجة بقدر ما فيه من السخف والافتعال . حتى ليعجب الإنسان : كيف تصدر هذه التصورات عن « فيلسوف » !! لولا أن يتذكر أن هذا الفيلسوف إنسان ؛ لا يملك إلا أداة العقل البشرى . وأن هذا ليس مجال العقل البشرى . وأن هؤلاء الناس « الفلاسفة » ! هم الذين زجوا بأنفسهم فى مجال لا منارة لهم فيه ، إلا تلك الذبالة الموهوبة لهم من الله لشأن آخر غير هذا الشأن ، ولمجال آخر غير هذا المجال . شأن تملك فيه أن تجدى ، ومجال تملك فيه أن تنير . . ذلك هو شأن الحياة الواقعية ، وذلك هو مجال الخلافة فى الأرض . وفق المنهج الإلهى . مع التطلع إلى فضل الله وعونه ، فيما يمده به من تفسير شامل للوجود ، ولغاية الوجود الإنسانى . . وقوله الفصل وهو الحق . . وقد تضمن منهجه ذلك التفسير بالقدر الذى يقوم عليه التصور الإنسانى الصحيح . وبالقدر الذى يقوم عليه كذلك نظام حياته على جذوره الطبيعية .

فنحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ، ليقوم نظام الحياة البشرية على جذوره الطبيعية . وليس هنالك منهج آخر ، تتوافر فيه هذه الخاصية التى لابد منها .

* * *

ونحن أخيرا ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لأنه — وحده — المنهج الذى يتناسق مع نظام الكون كله . فلا ينفرد الإنسان بمنهج لا يتناسق مع ذلك النظام . على حين أنه مضطر أن يعيش فى إطار هذا الكون ؛ وأن يتعامل بجملته مع النظام الكونى ..

والتناسق بين منهج حياة الإنسان ومنهج حياة الكون هو وحده الذي يكفل للإنسان التعاون مع القوى الكونية الهائلة؛ بدلا من التصادم معها. وهو حين يصطدم معها يتمزق وينسحق، ولا يؤدي وظيفة الخلافة في الأرض، كما أرادها الله له. وحين يتناسق مع نواميس الكون ويتوافق، يملك معرفة أسرارها، وتسخيرها، والانتفاع بها في حياته. لا ليحترق بنار الكون ولكن ليطبخ ويستدفئ ويستضيء!!!

والفطرة البشرية في أصلها متناسقة مع ناموس الكون.. فحين يخرج الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس، فإنه لا يصطدم مع الكون الهائل فحسب؛ بل يصطدم أيضا بفطرته التي بين جنبيه، فيشقى ويتمزق ويحتار ويقلق؛ ويحيا كما تحيا البشرية اليوم في عذاب نكد؛ على الرغم من جميع الانتصارات العلمية. وجميع التيسيرات الحضارية المادية.

إن هذه البشرية تعاني من الشقاء والقلق والحيرة والاضطراب؛ وتهرب من واقعها النفسي بالأفيون والحشيش والمسكرات. وبالسرعة المجنونة، والمغامرات الحمقاء؛ و «بالتقاليع» السخيفة... وذلك على الرغم من الرخاء المادي والإنتاج الوفير والحياة الميسرة، والفراغ الكثير.. لا بل إن الخواء والقلق والحيرة لتتضاعف كلما تضاعف الرخاء المادي والتيسيرات الحضارية..

إن هذا الخواء المرير يطارد البشرية كالشبح الرعيب. يطاردها فتهرب منه. ولكنها تنتهي كذلك إلى خواء مرير.

وما من أحد يزور البلاد الغنية الثرية المترفة بالتيسيرات الحضارية

- وفى مقدمتها أمريكا والسويد - حتى يكون الانطبـــاع الأول فى حسه أن هؤلاء قوم هاربون ! هاربون من أشباح تطاردهم . هاربون من ذوات أنفسهم .. وسرعان ما ينكشف له الرخاء المادى والمتاع الحسى والإشباع الجنسى إلى حد التمرغ فى الوحل .. سرعان ما ينكشف له هذا كله عن الأمراض العصبية والنفسية ، والشذوذ الجنسى ، والقلق العصبى، والمرض والجنون . والجريمة الشاذة ، وفراغ الحياة من كل تصور إنسانى كريم .

لقد أحرزت البشرية - عن طريق العلم - انتصارات ضخمة فى عالم الصحة والعلاج من الأمراض الجسمية . فكشفت من الأدوية ووسائل التشخيص والعلاج ما يعد انتصارات رائعة . وبخاصة بعد كشف مركبات السلفا والبنسلين والمايسين . . .

ولقد حققت فى عالم الصناعة والإنتاج مايشبه الخوارق ... وما تزال فى طريقها صعدا فى هذا المجال .

ولقد أحرزت انتصارات باهرة فى كشوف الفضاء ، والأقمار الصناعية ، ومحطات الفضاء . ومراكب الفضاء ... ومازال فى الطريق . .

ولكن ما أثر هذا كله فى حياتها ؟ ما أثره فى حياتها النفسية ! هل وجدت السعادة ؟ هل وجدت الطمأنينة ؟ هل وجدت السلام ؟ كلا ! لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف .. إنها لم تتقدم كذلك فى تصور أهداف الحياة الإنسانية . وغاية الوجود الإنسانى . وحين يقاس تصور الرجل « المتحضر » لغاية وجوده الإنسانى ، إلى التصور الإسلامى لهذه

الغاية ، تبدو الحضارة الراهنة لعنة تنحط بالشعور الإنسانى إلى الحضيض، وتصغر من اهتماماته وأشواقه وإنسانيته كلها !

إنهم فى أمريكا مثلا يعبدون آلهة جديدة : يتصورونها غاية الوجود الإنسانى . إله المال . وإله اللذة . وإله الشهرة . وإله الإنتاج ! ومن ثم لايجدون أنفسهم لأنهم لايجدون غاية وجودهم الإنسانى ! وكذلك الحال فى الجاهليات الأخرى . التى تعبد آلهة مشابهة ؛ لأنها لاتجد إلهها الحقيق !

من أجل هذا كله نحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج الإلهى للحياة البشرية . لترد البشرية إلى إلهها الواحد ؛ وإلى غاية وجودها اللائقة بالإنسانية ؛ وإلى الناموس الكونى الذى يشمل الكون كله ويشملها .

وهذه هى الحقيقة التى يقررها القرآن الكريم ؛ وهو يستنكر مسلك الذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله ، ومنهجه فى الحياة ، مخالفين بذلك عن كل شىء فى هذا الوجود الكبير .

« أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها ، وإليه يرجعون » ؟

وصدق الله العظيم ...

منهجٌ مُيَسَّر

ثم يقول قائل: ولكن البشرية لم تصبر طويلا على هذا المنهج السامق المتفرد. فقد تخلت عنه الجماعة التي حققته في الأرض فترة من الزمان؛ وقد اتجهت البشرية بعده إلى مناهج أخرى لا ترتفع إلى تلك القمة السامقة، ولكنها لا تكلف البشرية هذا الجهد الشاق!

وقد يبدو هذا القول صحيحا للوهلة الأولى. فقد حرص كثير من الكتاب على تثبيت هذا المعنى في النفوس؛ وعلى الإيحاء بأن هذا المنهج غير عملي ولا واقعي؛ ولا تطيقه طويلا فطرة البشر؛ وإنما هو دعوة «مثالية» إلى أفق غير مستطاع! وكان لهم من وراء تثبيت هذا المعنى غرض ماكر؛ هو إشاعة اليأس من إمكان استئناف الحياة في ظل هذا المنهج؛ وتخذيل الجهود التي تبذل لرد البشرية إلى هذا المنهج القويم. ووجد هؤلاء الماكرون في الفتنة التي بدأت بقتل عثمان — رضي الله عنه — وما تلاه من الخلاف بين علي — كرم الله وجهه — ومعاوية، وما أعقب هذا الخلاف من أحداث... وجدوا في هذه الفتنة مادة خصبة؛ وفي الروايات الصحيحة والزائفة عنها فرصة سانحة، لمحاولة تثبيت ذلك المعنى الخبيث. طورا بالتلميح. وطورا بالتصريح. حسبما واتتهم الظروف!

وساعدهم في هذا المكر — عن غير قصد وبحسن نية — جماعة من

المخلصين الذين ساءهم أن تعترض هذه الفتنة خط المد الإسلامي الصاعد في تلك الفترة التاريخية العظيمة. وأن يقع بعض الانحراف في تصور سياسة الحكم عما كان عليه في عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والشيخين بعده. وأن يقع بعض الانحراف في سلوك بعض الأمراء أيضا.. ومن ثم يحسون بسبب إرهاف مشاعرهم، أن المد الإسلامي كله قد توقف بعد فترة الخلافة القصيرة! وينادون بهذه النظرية في حرارة إخلاصهم وشوقهم للقمة السامقة! وحماستهم للصورة الوضيئة الفريدة!

وهذا كله يحتاج إلى إعادة النظر؛ وإلى دقة النظر؛ وإلى تقدير العوامل البشرية. مع تقدير طبيعة هذا الدين: وطبيعة منهجه لقيادة خطى البشرية في الزمن الطويل؛ وفي مختلف البيئات، ومختلف الظروف..

* * *

إنه ليس صحيحا — ابتداء — أن هذا المنهج الإلهي، يكلف النفس البشرية جهدا أشق من أن تطيقه أو أن تصبر طويلا عليه.

إنه منهج سامق فعلا. ولكنه في الوقت ذاته منهج فطري. يعتمد على رصيد الفطرة، وينفق من هذا الرصيد المذخور. وميزته أنه يعرف طريقه منذ اللحظة الأولى إلى هذا الرصيد!

إنه يعرف طريقه إلى النفس البشرية منذ اللمسة الأولى. يعرف دروبها ومنحنياتها فيتدسس إليها بلطف؛ ويعرف مداخلها ومخارجها فيسلك إليها على استقامة، ويعرف قواها ومقدراتها فلا يتجاوزها أيضا: ويعرف حاجاتها وأشواقها فيلبيها تماما؛ ويعرف طاقاتها الأصيلة البانية فيطلقها للعمل والبناء..

وعلى كل رفعته ونظافته وسموه وسموقه. هو نظام «للإنسان». لهذا الإنسان الذي يعيش على سطح هذه الأرض. نظام يأخذ في اعتباره فطرة هذا الإنسان بكل مقوماتها. وخصائص تكوينه وتركيبه بكل مقتضياتها.

وحين تستقيم النفس مع فطرتها؛ وحين تلبي حاجاتها وأشواقها، وحين تطلق طاقاتها للعمل والبناء، فإنها تجرى مع الحياة في يسر وطواعية؛ وتمضي مع خط الفطرة الصاعد، إلى القمة السامقة؛ وهي تجد الأنس والاسترواح والطمأنينة والثقة في خط سيرها الطويل.

* * *

وبعض الذين يتشككون ويشككون في إمكان تحقيق هذا المنهج تروعهم «أخلاقية» هذا المنهج؛ وأصالة العنصر الأخلاقي في تكوينه: وتهولهم تكاليف هذه «الأخلاقية» فيه؛ ويتصورونها قيودا وكوابح دون انطلاق الإنسان إلى ما يشتهي؛ وإلى ما تدفعه إليه نوازعه الفطرية وأشواقه!

وهذا وهم ناشيء من عدم إدراك طبيعة هذا الدين..

إن أخلاقية الإسلام لا تتمثل في مجرد مجموعة من القيود والكوابح والضوابط الرادعة. كلا! إنها في صميمها قوة بناءة، وحركة دافعة إلى النمو المطرد؛ وانطلاق إلى الحركة وتحقيق الذات في هذه الحركة.. ولكن في أسلوب نظيف..

إن العمل والإيجابية صورة أخلاقية في هذا المنهج. فالتبطل والسلبية صورة غير أخلاقية، لأنها تنافي غاية الوجود الإنساني — كما يصورها

الإسلام ـــ وهى الخلافة فى الأرض؛ واستخدام ما سخره الله للإنسان من قواها وطاقاتها فى التعمير والبناء .

والجهاد لتحقيق الخير ومكافحة الشر صورة أخلاقية ؛ تنطلق فيها طاقات أساسية فى الكيان الإنسانى ؛ بينما هى فى اعتبار الإسلام طاعة يتمثل فيها العنصر الأخلاقى فى صورة رائعة . .

وحتى حين نأخذ الصور الأخلاقية التى تبدو فى ظاهرها قيودا وكوابح ، فإننا نجدها من الجانب الآخـــر تمثل صورا من الانطلاق والتحرر . . والحركة . .

نأخذ مثلا صورة ضبط النفس عن الاندفاع مع الشهوات الجنسية المحرمة . . إنها فى ظاهرها تبدو كبتا وكبحا . . ولكنها فى حقيقتها تمثل التحرر من العبودية لهذه الشهوات ؛ والانطلاق من عقالها ؛ واستعلاء الإرادة الإنسانية ، بحيث «تختار» مواضع هذه الشهوات ؛ فى حدود النظافة التى يوفرها الإسلام ، وفى دائرة الطيبات التى أحلها الله[1] .

كذلك نأخذ صورة أخرى من صور الأخلاقية .. صورة الإيثار .

إنها قد تبدو تكليفا للنفس ؛ وكفاً لها عن التمتع بكل ما تملك ؛ لتؤثر به نفسا أخرى . . ولكنها فى صميمها انطلاق من الشح ؛ واستعلاء على الحرص ؛ وسعة فى الشعور بالخير العام ، الذى لا ينحصر فى إطار الذات . . فهى فى حقيقتها انفلات وتحرر وانطلاق .

ولا نملك المضى فى عرض الأمثلة الكثيرة على هذا النحو . فحسبنا

(١) يراجع فصل « مجتمع أخلاقى » فى كتاب « نحو مجتمع إسلامى » تحت الطبع . وفصل « القيد والحرية » فى كتاب « فى النفس والمجتمع » لمحمد قطب

هذه الإشارة ، لفهم حقيقة « القيود » الأخلاقية فى المنهج الإسلامى .

إن الإسلام يعتبر الآثام والرذائل قيودا وأغلالا تشد النفس الإنسانية وتثقلها وتهبط بها إلى الوحل . ويعد الانطلاق من أوهاق الميول الهابطة تحررا وانطلاقا، وكل «أخلاقيته» تقوم على هذا الأساس .

ذلك أنه يعتبر أن الأصل فى الفطرة هو الاستعداد للخير : فالإنسان خلق فى أحسن تقويم . وإنما يرتد أسفل سافلين حين يستسلم لغير منهج الله : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين .. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . . ومن ثم فإن المنهج الذى يلائم الفطرة ، هو الذى يعينها على الانفلات من القيود الطارئة على الفطرة الخيرة ، والتحرر من ربقة الشهوات المقيدة !

والإسلام يحرص على قيادة المجتمع البشرى ، والهيمنة عليه ، لينشىء فيه حالات وأوضاعا تطلق الأفراد من الانحرافات الدخيلة على الفطرة ؛ وتسمح للقوى الخيرة البانية فى الفطرة بالظهور والتحرر والتفوق ؛ وتزيل العوائق التى تحول بين الفطرة والانطلاق إلى الخير الذى فطرت عليه .

والذين يظنون أن « أخلاقية » الإسلام تجعل منه عبئا ثقيلا على البشرية ، تحول دون تحقيقه فى حياتهم ، إنما يستمدون هذا الشعور مما يعانيه الفرد المسلم ، حين يعيش فى مجتمع لا يهيمن عليه الإسلام .. وحين يكون الأمر كذلك يكون الإسلام بأخلاقيته عبئا ثقيلا فادحا بالفعل ، يقصم ظهور الأفراد الذين يعيشون بإسلامهم النظيف فى المجتمع الجاهلى القذر ؛ ويكاد يسحقهم سحقا !

ولكن هذا ليس هو الوضع الطبيعي الذي يفترضه الإسلام ، وهو يفرض « أخلاقيته » الرفيعة النظيفة السامقة على الناس . . إن الإسلام نظام واقعي . ومن ثم فهو يفترض أن الناس الذين يعيشون بمنهجه ، يعيشون في مجتمع يهيمن عليه الإسلام . وفي هذا المجتمع يكون الخير والفضيلة والنظافة هي « المعروف » الذي يعرفه ويصونه كل القائمين على هذا المجتمع . ويكون الشر والرذيلة والقذارة هي « المنكر » الذي تطارده كل القوى المهيمنة على هذا المجتمع أيضا !

وحين يستقيم الأمر — على هذا النحو — يصبح المنهج الإسلامي للحياة منهجا ميسرا شديد التيسير . بل تصبح الصعوبة الحقيقية هي مخالفة الأفراد لهذا المنهج : ومحاولتهم الاندفاع مع الشهوات الهابطة : ومقارفة الشر والرذيلة . لأن كل القوى المهيمنة على المجتمع حينئذ — مضافا إليها قوى الفطرة السليمة المستقيمة — تقف في وجوههم . وتجعل طريقهم المنحرف شاقا عسيرا !

ومن هنا يحتم الإسلام أن تكون الهيمنة المطلقة على الجماعة البشرية لله ولمنهج الله ؛ ويحرم أن تكون هذه الهيمنة المطلقة لأحد من خلق الله، ولمنهج من صنع غير الله . ويعد هذا كفرا صريحاً أو شركا كاملا — كما أسلفنا في مقدمات الفصل السابق — فالإسلام له صورة واحدة : هي إفراد الله سبحانه بالألوهية . . أي إفراد منهجه بالهيمنة على الحياة البشرية . لأن هذا هو المعنى المباشر القريب لشهادة أن لا إله إلا الله كما أسلفنا .

كذلك يفترض الإسلام قيام مجتمع إسلامي يعيش في ظله الفرد المسلم بدينه هنا، وبخلقه الذي يفرضه هذا الدين. ذلك أن الشعور الإسلامي بالوجود كله، ولغاية الوجود الإنساني، يختلف اختلافاً جوهرياً عن جميع التصورات الجاهلية — وهي التي يصوغها البشر لأنفسهم في معزل عن هدى الله في أي زمان وفي أي مكان — وهو اختلاف رئيسي لا مجال فيه للالتقاء في منتصف الطريق..

فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور، بكل قيمه الخاصة. لا بد له من وسط غير الوسط الجاهلي، ولا بد له من بيئة غير البيئة الجاهلية.

هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي، وبالمنهج الذي ينبثق منه: ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية، وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه؛ وبلا عوائق من خارجه تسحقه أو تطغى عليه.

وفي هذا الوسط يحيا الفرد المسلم حياة طبيعية مريحة؛ لأنه يتنفس أنفاسه الطبيعية؛ ويجد على الخير أعواناً؛ ويجد في اتباع القيم الأخلاقية الإسلامية راحة شعورية، وراحة اجتماعية.

وبغير هذا الوسط تصبح حياة هذا الفرد متعسرة — أو شاقة على الأقل — ومن هنا ينبغي أن يعلم من يريد أن يكون مسلماً، أنه لا يستطيع أن يزاول إسلامه إلا في وسط مسلم يهيمن عليه الإسلام. وإلا فهو واهم إذا ظن أنه يملك أن يحقق إسلامه، وهو فرد ضائع أو مطارد في المجتمعات الجاهلية!

إن المنهج الإسلامي ميسر، حين يعيش في وسطه هذا. وهو يفترض أن هذا الوسط لا بد من وجوده. ويقيم توجيهاته كلها على هذا الأساس.

* * *

كذلك ليس صحيحا أن هذا المنهج يكلف البشرية جهداً أشق من الجهد الذى تبذله وهى تحيا فى ظل المناهج الجاهلية.

إن المناهج الجاهلية — وهى التى يتخذها البشر لأنفسهم فى معزل عن هدى الله فى أى زمان وفى أى مكان — تتسم حتما بشيء من نتائج الجهل البشرى والضعف البشرى والهوى البشرى — وذلك فى أحسن حالاتها — فهى من ثم تصطدم بالفطرة البشرية اصطداما كليا أو جزئيا. ومن ثم تشق بها النفس البشرية بقدر ما فيها من التصادم مع فطرتها!

ثم إنها تتسم كذلك بالعلاجات والحلول الجزئية للمشكلات البشرية. وكثيرا ماتعالج جانبا بإيذاء الجانب الآخر: وتلك هى الثمرة المباشرة للرؤية الناقصة التى لاتلم بجميع الجوانب فى الوقت الواحد. فإذا عادت إلى علاج الداء الجديد الذى أنشأه العلاج للداء الأول، أنشأت داء جديدا ... وهكذا دواليك ... كما تشهد بذلك دراسة التقلبات والأطوار التى أنشأتها النظم البشرية والمناهج البشرية .. الجاهلية ... وهذا وذلك يكلف البشرية — ولا شك — جهودا أشق من الجهد الذى تبذله للمنهج الكامل الشامل المستقيم مع الفطرة؛ الذى ينظر إلى مشكلاتها كلها من جميع الجوانب، ويضع لها العلاج الكامل الشامل، المنبثق من الرؤية الكاملة الشاملة.

والذى يراجع سجل الآلام البشرية ، الناشئة من مناهج الجاهلية ، فى تاريخها الطويل ، لايجرؤ على القول بأن هذا المنهج الإلهى بكل تكاليفه ، وبكل ، أخلاقيته ، يكلف البشرية من الجهد مالا تكلفه لها المناهج الجاهلية !

وأيسر ما فى هذا المنهج أنه — وهو يضع فى حسابه البلوغ إلى القمة السامقة — لايعتسف الطريق ، ولا يستعجل الخطى ، ولا يتخطى المراحل . . إن المدى أمامه ممتد فسيح ؛ لايحده عمر فرد ؛ ولا تستحثه رغبة فان يخشى أن يعجله الموت أو الفوت عن تحقيق غايته البعيدة ؛ كما يقع لأصحاب المذاهب والمناهج الأرضية من البشر الفانين ؛ الذين يعتسفون الأمر كله فى جيل واحد ؛ ويتخطون الفطرة الهادئة الخطى ، ليقفزوا إلى تحقيق صورة براقة تخايل لهم ؛ ولا يصبرون على الخطو الطبيعى الهادىء المطمئن البصير . . وفى الطريق المعتسف الذى يسلكونه تقوم المجازر ، وتسيل الدماء ، وتتحطم القيم ، وتضطرب الموازين . . ثم يتحطمون هم فى النهاية تحت مطارق الفطرة التى لا تصمد لها الأجهزة المصطنعة العسوف !

فأما المنهج الإسلامى فيسير هينا لينا — مع الفطرة — يوجهها من هنا ، ويردها من هناك ؛ ويقومها حين تميل . ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها ولا يجهدها كذلك . إنه يصبر عليها صبر العارف البصير ، الواثق من الغاية البعيدة المدى ، الأكيدة التحقيق . . والذى لا يتم فى الجولة الأولى يتم فى الجولة الثانية ، والذى لايتم فى الجولة الثانية يتم فى الجولة الثالثة . . أو العاشرة . . أو المئة . . أو الألف ! كل ما هو مطلوب هو بذل الجهد والمضى فى الطريق !

وكما تنبت الشجرة الباسقة ، وتضرب بجذورها فى أعماق التربة ، وتتطاول فروعها وتتشابك .. كذلك ينبت هذا المنهج فى النفس والحياة. ويمتد فى بطء ، وعلى مهل . وفى ثقة وطمأنينة .. ثم يكون ما يريد الله أن يكون .

إن الإسلام يلقى بذوره ، ويقوم على حراستها ؛ ويدعها حينئذ تنمو نموها الطبيعى الهادىء وهو واثق من الغاية البعيدة . ومهما يحدث من البطء أحيانا ، ومن التراجع أحيانا ، فإن هذا شأن الفطرة .. والزرعة قد تسفى عليها الرمال . وقد يأكل بعضها الدود . وقد يحرقها الظمأ . وقد يغرقها الرى . وقد تصاب بشتى الآفات .. ولكن الزارع البصير يعلم أنها زرعة للبقاء والنماء ، وأنها ستغالب الآفات كلها على المدى الطويل . فلا يعتسف ، ولا يقلق . ولا يحاول أن ينضجها بغير وسائل الفطرة الهادئة اليسيرة . ومن ثم يصاحبها اليسر ، وتسهل تكاليفها على النفوس .

على أننا لا نحتاج — اليوم — إلى الحديث عما تعانيه البشرية من اعتساف المناهج الجاهلية وأصحابها . وحسبنا ما تجأر به من الشقوة فى مشارق الأرض ومغاربها . وما يجهر به بقية العقلاء من صيحات الإنذار والخطر فى كل مكان ..

* * *

وأخيرا فإنه ليس صحيحا أن هذا المنهج لم يعش طويلا — كما يقول بعضهم فى خبث وكيد : وبعضهم فى حماسة وغيرة ! فإن البناء الروحى والاجتماعى والسياسى . الذى قام على أساس هذا المنهج السامق الفريد ، والذى لم يستغرق بناؤه سوى قرن واحد من الزمان — بل نصف قرن

فى الحقيقة — قد ظل يقاوم جميع الآفات التى تسللت إليه ، وجميع العداوات التى ساورته ؛ وجميع الهجمات الوحشية التى شنت عليه . . أكثر من ألف عام . .

وقد ظلت هذه العوامل الرهيبة تساوره وتهاجمه وتتسلل إلى قواعده فى إصرار . . ووراءها جميع قوى العالم الجاهلى . . فلا تبلغ أن تحطمه من أساسه . ولكنها مع تطاول الزمان ، ومع التجمع والترصد ، ومع الإصرار والاستمرار . ظلت تنقص منه شيئا فشيئا . وتنحرف به عن أصوله شيئا فشيئا ؛ حتى أثخنته فعلا وهددته تهديدا خطيرا . . ومع هذا كله فإنها لم تستطع — حتى اللحظة — تشويه أصوله النظرية ؛ فما تزال هذه الأصول قادرة على البعث الجديد ؛ حين يعتنقها جيل جديد !

ولكى ندرك قيمة هذه الحقيقة التاريخية ، ينبغى أن ننظر إلى بناء آخر ، قام على منهج جاهلى . . ذلك هو بناء الدولة الرومانية . . لقد استغرق هذا البناء قرابة ألف عام . ثم تحطم فيما لا يزيد على قرن واحد تحت ضربات الهون والقوط . . ولم يقم بعد ذلك أبدا . ولا بقيت فى أصوله بقية ينهض عليها بعث جديد !

وهذا هو الفارق الأساسى بين منهج الله ومناهج العبيد !

نعم إنه كانت هناك فترة فارعة فى تاريخ هذا المنهج — وفى تاريخ البشرية كله — ظلت تتراءى فى التاريخ البشرى كله ، كالقمة السامقة ، تتطاول إليها الأعناق . وتتطلع إليها الأنظار : وهى فى مكانها السامى هناك !

.. وهى فترة قصيرة فعلا ..

ولكن هذه الفترة ليست هى كل العهد الإسلامى .. إنما هى منارة أقامها الله، لتظل البشرية تتطلع إليها، وتحاول أن تبلغها كذلك؛ وتتجدد آمالها فى بلوغ القمة السامقة، وهى تدرج إليها فى المرتقى الصاعد. وضم الله لها ما يقسم من المدارج فى هذا المرتقى. وهى تتطلع دائما إلى المنارة الهادية!

حقيقة إن هذه الفترة لم تكن وليدة معجزة لا تتكرر؛ وأنها كانت ثمرة الجهد البشرى الذى بذلته الجماعة المسلمة الأولى؛ وأنها ممكنة التحقيق حين يبذل مثل ذلك الجهد مرة أخرى..

ولكن هذا الجهد الذى بذلته طائفة مختارة من البشر، قد يكون مرصودا لكثير من الأجيال البشرية القادمة — لا لجيل واحد — وقد يكون تحقيق تلك القمة الفريدة فى ذلك الجيل الواحد، قدرا من أقدار الله، لكى يقوم هذا النموذج فى صورة واقعية تمكن محاولتها، وتمكن معرفة خصائصها.. ثم يترك للبشرية بعد ذلك فى أجيالها المتتابعة، أن تحاول بلوغها من جديد..

وقد ظل المنهج يؤدى دوره، فيما بعد هذه الفترة، فى مساحات واسعة من الحياة البشرية: وظل يفعل فى تصورات البشرية وتاريخها وواقعها أجيالا طويلة؛ وترك من ورائه آثارا وتيارات فى حياة البشرية كلها، لعلها هى التى تجعلنا نأمل اليوم، فى إمكان البشرية أن تتطلع إلى المحاولة من جديد...

منهج مؤثر

على أن هذه الإشراقة اللامعة بقيت من التأثير الدائم في واقع الحياة البشرية . قدر ما بلغته من البهاء والرفعة ، ومن العظمة والكمال . وخلفت في واقع البشرية التاريخي من الآثار الباقية ، ما قد يجعل الجيل الحاضر من هذه البشرية اليوم أقدر على محاولة من سائر الأجيال التي خلت — بعد تلك الصفوة المختارة من رجال الصدر الأول — وذلك بمساعدة التيارات التي أطلقتها ، والرواسب التي خلفتها ؛ في التصورات والقيم ، وفي النظم والأوضاع سواء .

وسنحاول في هذا الفصل أن نلم — في اختصار وإجمال يناسبان طبيعة هذا البحث المجمل المختصر — بلمحات عن آثار هذه الإشراقة الوضيئة الفريدة ؛ لا في تاريخ الأمة الإسلامية وحدها ؛ ولكن كذلك في تاريخ البشرية بجملتها .

* * *

لقد استطاعت تلك الفترة أن تنشيء في واقع الحياة البشرية عددا كبيرا من الشخصيات النموذجية تتمثل فيها الإنسانية العليا ، بصورة غير مسبوقة ولا ملحوقة . صورة تصغر في ظلها جميع الشخصيات البشرية التي نشأت في غير هذا المنهج . فهي إما صغيرة ، أو كائنات لم تتكامل وجودها بعد . أو كائنات غير متسقة على كل حال !

ولم تكن هذه الشخصيات النموذجية التي أخرجها المنهج الإلهي في تلك الفترة القصيرة آحادا تعد على أصابع اليدين؛ إنما كانت حشدا كبيرا؛ يعجب الباحث كيف انبثقت هكذا سامقة ناضجة إلى هذا المستوى العجيب في هذه الفترة القصيرة المحدودة. ويعجز عن تعليل انبثاقها على هذا النطاق الواسع؛ وعلى هذا المستوى الفارع؛ وفي مثل هذا التنوع في النماذج.. مالم يرد هذه الظاهرة الفريدة إلى فعل ذلك المنهج الفريد.

والمهم أن نعرف أن هؤلاء الناس، الذين تمثلت فيهم نماذج الإنسانية العليا: النماذج التي ظلت فريدة في سموقها؛ وظلت سائر النماذج على مدار القرون تبدو في ظلها أقزاما صغيرة، أو كائنات غير تامة الوجود.. المهم أن نعرف أن هؤلاء الناس الذين حققوا ذلك المنهج الإلهي في حياتهم على هذا النحو العجيب، قد ظلوا — مع هذا — ناسا من البشر لم يخرجوا عن طبيعتهم، ولا عن فطرتهم؛ ولم يكبتوا طاقة واحدة من طاقاتهم البانية؛ ولم يكلفوا أنفسهم كذلك فوق طاقتهم.. لقد زاولوا كل نشاط إنساني، وأصابوا من الطيبات كل ما كان متاحا لهم في بيئتهم وزمانهم.. لقد أخطأوا وأصابوا، وعثروا ونهضوا؛ وأصابهم الضعف البشري أحيانا — كما يصيب سائر البشر — وغالبوا هذا الضعف، وانتصروا عليه أحيانا أخرى..

والمعرفة بهذه الحقيقة ذات أهمية قصوى. فهي تعطي البشرية أملا قويا في إعادة المحاولة؛ وتجعل من واجبها — بل تجعل من حقها — أن تتطلع إلى هذه الصورة الوضيئة الممكنة، وأن تظل تتطلع. فهي صورة من شأنها أن تزيد من ثقة البشرية بنفسها، وبفطرتها، وبمقدراتها

الكامنة ، التى يمكن — عندما يوجد المنهج الصالح — أن تبلغ بها إلى ذلك المستوى الإنسانى الرفيع ، الذى بلغته مره فى تاريخها .. فهى لم تبلغه بمعجزة خارقة لا تتكرر . إنما بلغته فى ظل منهج من طبيعته أن يتحقق بالجهد البشرى ، وفى حدود الطاقة البشرية .

ولقد انبثق ذلك الجيل الفارع العظيم ، من قلب الصحراء ، الفقيرة الموارد ، المحدودة المقدرات الطبيعية والاقتصادية والعلمية .. وعلى كل مكان فى هذه البيئة من المواقفات المكونة لهذا الانبثاق الهائل العجيب ، فإن البشرية — اليوم وغداً — ليست عاجزة بفطرتها ، ولا عاجزة بقدراتها ، أن تنجح مرة أخرى فى المحاولة ، إذا هى اتخذت ذلك المنهج قاعدة لحياتها .

ولقد ظل هذا المنهج — على كل ما ألم به على مدى الزمن من انحرافات ومن خصومات ومن هجمات — يبعث بنماذج من الرجال ، فيها من ذلك الجيل الأول الفارع مشابه ، وفيها منه آثار وانطباعات .. وظلت هذه النماذج تؤثر فى الحياة البشرية تأثيرات قوية ؛ وتؤثر فى خط سير التاريخ البشرى ؛ وتترك من حولها ومن ورائها تيارات ودوامات هائلة تطبع وجه الحياة ؛ وتلون سماتها .

وما يزال هذا المنهج قادرا فى كل حين ، على أن يبعث بهذه النماذج ، كلما بذلت محاولة جدية فى تطبيقه وتحكيمه فى الحياة . على الرغم من جميع المؤثرات المضادة ؛ وعلى الرغم من جميع المعوقات من حوله وفى طريقه .

والسر الكامن فيه هو تعامله المباشر مع الفطرة ؛ واستمداده المباشر

من رصيدها المكنون . وهو رصيد هائل ، ورصيد دائم . وحيثما التقى مع هذا المنهج تفجرت ينابيعه الثرة ؛ وفاض فيضه المكنون !

* * *

واستطاعت هذه الفترة أن تقرر فى واقع الحياة البشرية مبادىء وتصورات ، وقيما وموازين ، لم يسبق أن تقررت فى تاريخها كله ، بمثل هذا الوضوح ، وبمثل هذا العمق ، وبمثل هذا الشمول للنشاط الحيوى كله. ولم يقع كذلك أن تقررت هذه المبادىء والتصورات والقيم والموازين فى واقع البشرية مرة أخرى — وفى ظل أى منهج وأى نظام فى الأرض كلها — بمثل هذا الوضوح ، وبمثل هذا العمق ، وبمثل هذا الشمول للنشاط الحيوى كله . . ثم — وهذا هو الأهم — بمثل هذا الصدق والجد والإخلاص والتجرد الحقيقى العميق .

وقد تناولت هذه المبادىء والتصورات . وهذه القيم والموازين ، كل قطاعات الحياة الإنسانية . تناولت تصور البشرية لإلهها ، وعلاقاتها به . وتصورها هذا الوجود الذى تعيش فيه وعلاقاتها به، وتصورها لغاية وجودها الإنسانى ومكانها فى هذا الكون ووظيفتها . . .

كما تناولت — تبعا لذلك — تصورها لحقيقة الإنسان ، وحقوقه وواجباته وتكاليفه ، والقيم التى توزن بها حياته ونشاطه ومكانته ، والتى تقوم عليها علاقاته بربه ، وعلاقاته بأهله ، وعلاقاته بأبناء جنسه ، وعلاقاته بالكون والأحياء والأشياء .

وعا تناولته .. الحقوق والواجبات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

والأنظمة والأوضاع والروابط التي تنظم هذه الحقوق والواجبات.. وبالجملة كل قطاعات الحياة الإنسانية في شتى صورها وجوانبها الكثيرة.

وقررت في هذا كله حكمها الذي يفردها ويميزها، ويجعل لها طابعها الرباني الفريد..

وقد تم هذا كله في وسط محلي معاد لمثل هذه المبادئ والتصورات؛ ولهذه القيم والموازين.. وفي وسط عالمي منكر لأساس هذه المبادئ والتصورات والقيم والموازين. وفي ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية وعقلية ونفسية — محلية وعالمية — من شأن ظواهرها أن تصادم هذه الاتجاهات التي قررها الإسلام في واقع الحياة البشرية، للمرة الأولى، أو على الأقل لا تساعدها على الحركة الطليقة. معتمدا في نجاحه — قبل كل شيء — على رصيد الفطرة البشرية من الاستعداد للاستقامة على المنهج الإلهي — المركوز في صميمه لهذه الفطرة — قبل أن تغشيها المؤثرات السطحية — وعلى استثارة هذا الرصيد، واستنقاذه من الركام الذي ران عليه. وهو رصيد ضخم، يكفي — حين يوجد المنهج الذي يستنقذه من التبدد والانطمار — لمقاومة تلك المؤثرات السطحية، التي يظن بعض قصار النظر أنها تمثل كل شيء في حياة الإنسان.. والإسلام لا يغفل هذه المؤثرات ولا يهمل آثارها في الحياة البشرية. ولكنه لا يقف أمامها مستسلما. باعتبارها «أمرا واقعا» لا فكاك منه. بل يلجأ إلى استنقاذ رصيد الفطرة؛ وتجميعه، وتوجيهه، لتعديل الواقع، في رفق وتؤدة — على نحو ما بينا من طريقته في العمل في الفصل السابق —

وينتهي إلى مثل ما انتهى إليه في تلك الفترة، في مواجهة تلك الظروف المناوئة، المحلية والعالمية، وتحويلها إلى ظروف مواتية. كما حدث بالفعل في الجزيرة العربية، وفيما وراءها كذلك!

والبشرية اليوم قد تكون — في بعض الجوانب — أحسن حالا وظروفا منها يوم جاءها هذا المنهج. وأحدث فيها — في فترة قصيرة — ذلك الانقلاب الشامل. وتلك الثورة العظمى — في رفق ويسر وانطلاق — وقد تكون أقدر على العمل بهذا المنهج — للأسباب التي سنبينها في فصل تال — وقد تكون طاقتها اليوم على حمله أكبر. وبخاصة حين نعرف أن رصيد الفطرة الإنسانية — على الرغم من كل ما يرسب فوقه من ركام الفساد والشر والانحراف؛ وعلى الرغم من كل ما يبنده ويسحقه من الأوضاع المادية والمؤثرات الاقتصادية والفكرية — قادر على أن ينتفض، ويتجمع، ويعمل، حين ينطلق المنهج في استنفاذه وتجميعه وتوجيهه، وإطلاقه في الخط المتناسق مع فطرة الإنسان، وفطرة الكون، كما خلقها الله. وأن هذا الرصيد من الأصالة، والعمق، والضخامة، بحيث يرجح سائر العوامل الأخرى، التي تأخذ صورة «الواقع»... فما بال إذا كان بعض هذه العوامل اليوم في صفه وفي اتجاهه؟

إن «الواقع» الخارجي يتراءى لمن لا يعرفون طبيعة هذا المنهج، كما لو كان هو الحقيقة التي لا سبيل إلى تغييرها، ولا سبيل إلى زحزحتها، ولا سبيل إلى التمرد عليها!

ولكن هذا ليس إلا وهماً كبيراً . فالفطرة البشرية « واقع » كذلك. وهي ليست على استقامة مع هذا الواقع الظاهري ؛ بدليل أنها تشق به في مشارق الأرض ومغاربها . وحين تصطدم الفطرة بوضع من الأوضاع، أو بنظام من تنظيم ، فقد تُغلب في أول الأمر : لأن وراء هذا الوضع أو هذا النظام قوة مادية تفرضه فرضاً ؛ ولكن الذي لاشك فيه أن الفطرة أقوى وأثبت من كل وضع طارئ عليها ، ومن كل قوة تسند هذا الوضع الطارئ . ولا بد لها من أن تغلب في النهاية . وبخاصة حين يقودها منهج ضيعته من طبيعتها .

وقد حدث هذا مرة يوم واجه ذلك المنهج الإلهي « واقع » الجزيرة العربية ، وواقع الأرض كلها . فانتصر على هذا الواقع انتصاراً رائعاً ؛ وبدّل قوائمه التصورية والعملية ؛ وأقامه على أسس جديدة.

وهذا الذي حدث لم يتم بمعجزة خارقة لاتتكرر . ولكنه تحقق — وفق سنة الله الدائمة — بجهد بشري ؛ وفي حدود الطاقة البشرية ... فدلت هذه السابقة على إمكان تكرار هذه الظاهرة .

فما بال إذا كانت التيارات التي أطلقتها تلك الفترة ، والرواسب التي خلفتها ، في حياة البشرية ، وفي الواقع التاريخي ، كلها عوامل مساعدة في المحاولة الجديدة ؟

* * *

واستطاعت تلك الفترة أن تقر في حياة البشرية تقاليد عملية ، وأوضاعا واقعية — تستند إلى تلك المبادئ والتصورات والقيم والموازين —

لم تمت وتذهب بانقضاء تلك الفترة . ولكنها امتدت فى صورة تيار متحرك ، مندفع إلى مسافات بعيدة فى الأرض ؛ وإلى أحقاب متطاولة من الزمان . وتأثرت بها الحياة البشرية كلها — على صورة من الصور — وأصبحت رصيدا للبشرية كلها ، تنفق منه وتستمد أكثر من ألف عام.. رصيدا يؤثر فى تصوراتها ، ويؤثر فى أوضاعها ، ويؤثر فى تقاليدها ، ويؤثر فى علومها ومعارفها ، ويؤثر فى اقتصادها وعمرانها ، ويؤثر فى حضارتها كلها تأثيرات متفاوتة ؛ ولكنها مطردة فاعلة فى كل ركن من أركان الأرض . وما تزال بقايا من ذلك التيار تعمل فى واقع الحياة البشرية حتى اليوم ، على الرغم من جميع القوى التى وقفت فى وجه هذا المد الغامر ، وعلى الرغم من النكسة أو النكسات إلى الجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية ، فى العالم الغربى ، الذى سيطر على مقاليد الأرض أحقابا متطاولة !

وقد استقرت فى حياة البشرية من وراء هذه التأثيرات الواقعية مبادئ وقيم ، ونظريات وأوضاع ، قد تجهل البشرية اليوم مصدرها الأصيل ، وقد تردها إلى مصادر أخرى غير ذلك المنهج المؤثر . ولكنه ليس من المتعذر معرفة أصلها الأول ، والرجوع بها إلى فعل المنهج الإلهى ، وآثاره فى الحياة البشرية . وسنشير فى فصل تال إلى بعض الخطوط العريضة التى انتهت البشرية إلى إقرارها اليوم ، وكانت منكرة لها أشد الإنكار يوم جاءها بها الإسلام ، أول مرة ، منذ نيف وثلثمائة وألف عام !

ولعله من شأن استقرار هذه الخطوط العريضة فى حياة البشرية وأوضاعها الحاضرة، بعد الإنكار الشديد لها يوم جاءها بها الإسلام أول مرة، أن تكون البشرية اليوم أقرب — بصفة عامة — إلى تفهم هذا المنهج، وأقدر كذلك على حبه، ولديها منه رصيد واقعى، خلفته موجة المد الأول، لم يكن لديها يوم جاءها أول مرة! ولديها كذلك رصيد من تجاربها الخاصة، فى فترة التيه والشرود عن هذا المنهج؛ وما أصبحت تعانيه اليوم من آثار هذا التيه وهذا الشرود — مما سبقت الإشارة إليه باختصار — فهذه وتلك قد تكون من العوامل المساعدة على تقبل المنهج الإلهى، والصبر عليه فى الجولة القادمة... بإذن الله..

* * *

ولعله يحسن الآن - وقد وصلنا إلى هذا الحد من الإشارات المجملة - أن نفصل بعض التفصيل، بذكر شيء من مدلولاتها الواقعية فى الحياة البشرية، من خلال الواقع التاريخى، وبتفصيل شيء عن رصيد الفطرة الذى واجه به الإسلام واقع البشرية فانتصر عليه، وقرر منهجه فى وجه ذلك الواقع..

رَصيدُ الفِطرَة

يوم جاء الإسلام أول مرة وقف في وجهه « واقع » ضخم . واقع الجزيرة العربية ، وواقع الكرة الأرضية ! . . وقفت في وجهه عقائد وتصورات ؛ ووقفت في وجهه قيم وموازين ؛ ووقفت في وجهه أنظمة وأوضاع ؛ ووقفت في وجهه مصالح وعصبيات . . .

كانت المسافة بين الإسلام - يوم جاء - وبين واقع الناس في الجزيرة العربية وفي الكرة الأرضية، مسافة هائلة سحيقة. وكانت النقلة التي يريدهم عليها بعيدة بعيدة . . .

وكانت تسند « الواقع » أحقاب من التاريخ ؛ وأشتات من المصالح ؛ وألوان من القوى ؛ وتقف كلها سدا في وجه هذا الدين الجديد : الذي لا يكتفي بتغيير العقائد والتصورات ، والقيم والموازين ، والعادات والتقاليد ، والأخلاق والمشاعر .. إنما يريد كذلك - ويصر - على أن يغير الأنظمة والأوضاع، والشرائع والقوانين ، وتوزيع الأموال والأرزاق. كما يصر على انتزاع قيادة البشرية من يد الطاغوت والجاهلية ، ليردها إلى الله وإلى الإسلام !

ولو أنه قيل لكائن من كان - في ذلك الزمان - إن هذا الدين الجديد الذي يحاول هذا كله ، في وجه ذلك « الواقع » الهائل ، الذي تسنده قوى الأرض كلها ، هو الذي سينتصر ، وهو الذي سيبدل هذا الواقع في أقل

من نصف قرن من الزمان ، لما لقي هذا القول إلا السخرية والاستهزاء والاستنكار !

ولكن هذا « الواقع » الهائل الضخم ، سرعان ما تزحزح عن مكانه ، ليخليه للوافد الجديد . وسرعان ما تسلم القائد الجديد مقادة البشرية ليخرجها من الظلمات إلى النور ؛ ويقودها بشريعة الله ، تحت راية الإسلام !

كيف وقع هذا الذي يبدو مستحيلا في تقدير من يبهرهم « الواقع » ، ويسحقهم ثقله ، وهم يزنون الأمور والأوضاع ؟ !

كيف استطاع رجل واحد .. محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .. أن يقف وحده في وجه الدنيا كلها ، أو على الأقل في وجه الجزيرة العربية كلها في أول الأمر ؟ أو على الأقل في وجه قريش سادة العرب كلهم في منشأ الدعوة؟ وأمام تلك العقائد والتصورات والقيم والموازين، والأنظمة والأوضاع ، والمصالح والعصبيات .. ثم ينتصر على هذا كله ؛ ويبدل هذا كله ؛ ويقيم النظام الجديد ، على أساس المنهج الجديد ، والتصور الجديد ؟

إنه لم يتملق عقائدهم وتصوراتهم ؛ ولم يداهن مشاعرهم وعواطفهم ؛ ولم يهادن آلهتهم وقيادتهم .. لم يتمسكن حتى يتمكن .. إنه أمر أن يقول لهم منذ الأيام الأولى ، وهو في مكة ، تتألب عليه جميع القوى :

« قل : يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين » . . .

فلم يكتف بأن يطلق لهم افتراق دينه عن دينهم، وعبادته عن عبادتهم، ومفاصلتهم فى هذا مفاصلة كاملة لالقاء فيها. بل أمر كذلك أن ييئسهم من إمكان هذا اللقاء فى المستقبل. فكرر عليهم: «ولا أنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد»... وباطراد المفاصلة فى هذا الأمر، الذى لا التقاء فيه! «لكم دينكم ولى دين»..

وهو كذلك لم يبهرهم بادعاء أن له سلطانا سريا؛ ولا مزايا غير بشرية ولا موارد سرية. بل أمر أن يقول لهم:

«قل: لا أقول لكم عندى خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول لكم إنى ملك. إن أتبع إلا مايوحى إلى»... (الأنعام: ٥٠)

ولم يوزع الوعود بالمناصب والمغانم لمن يتبعونه، حين ينتصر على مخالفيه: قال ابن إسحاق: «كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يعرض نفسه على القبائل فى الموسم - موسم الحج - يقول: «يابنى فلان. إنى رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا؛ وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد؛ وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى؛ وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به»

قال ابن إسحاق - وحدثنى الزهرى: أنه أتى بنى عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل؛ وعرض عليهم نفسه. فقال رجل منهم يقال له: بيجرة بن فراس: والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب! ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر لله

يضعه حيث يشاء » . قال : فقال له ، أفتهدف نحورنا للعرب، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك ! فأبوا عليه » . .

كيف إذن وقع الذى وقع ؟ كيف قوى ذلك الرجل الواحد على قهر كل ذلك « الواقع » ؟

إنه لم يقهره بمعجزة خارقة لا تتكرر . فقد أعلن — صلى الله عليه وسلم — أنه لا يعمل فى هذا الحقل بخارقة ؛ ولم يستجب - مرة واحدة - لطلبهم للخوارق .. إنما وقع الذى وقع وفق سنة دائمة تتكرر كلما أخذ الناس بها واستجابوا إليها ..

لقد وقع الذى وقع من غلبة هذا المنهج ، لأنه تعامل — من وراء الواقع الظاهرى — مع رصيد الفطرة المكنون . وهو رصيد — كما أسلفنا — ضخم هائل ، لا يغلبه هذا الركام الظاهرى : حين يُستنقَذ ويُجمَّع ويُوجَّه ، ويُطلَق فى اتجاه مرسوم !

* * *

كانت المعتقدات الفاسدة والمحرفة ترين على ضمير البشرية . وكانت الآلهة الزائفة تزحم فناء الكعبة كما تزحم تصورات الناس وعقولهم وقلوبهم . وكانت المصالح القبلية والاقتصادية تقوم على كواهل هذه الآلهة الزائفة ، وما وراءها من سدانة وكهانة ، ومن أوضاع فى حياة الناس ، مستمدة من توزيع خصائص الألوهية بين العباد ؛ وإعطاء السدنة والكهنة حق الاشتراع للناس ، ووضع مناهج الحياة !!!

وجاء الإسلام يواجه هذا « الواقع » كله بلا إله إلا الله . ويخاطب

الفطرة التي لا تعرف لها إلهاً إلا الله . ويعرف الناس بربهم الحق ، وخصائصه وصفاته التي تعرفها فطرتهم من تحت الأنقاض والركام .

« قل : أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل : إني أمرت أن أكون أول من أسلم . ولا تكونن من المشركين . قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير . قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بيني وبينكم : وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون » (الأنعام ١٤ - ١٩)

« قل : إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله : قل : لا أتبع أهواءكم . قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . قل : إني على بينة من ربي . وكذبتم به ، ما عندي ما تستعجلون به . إن الحكم إلا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين . قل : لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم . والله أعلم بالظالمين . وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليُقضَى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة . حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم

لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم ، وهو أسرع الحاسبين . قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعا وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون . قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » ...

(الأنعام : ٥٦ - ٦٥)

واستمعت الفطرة إلى الصوت القديم ، الذى يخاطبها من وراء ركام الواقع الثقيل ، فى التيه العريض . وثابت إلى إلهها الواحد . وانتصرت الدعوة الجديدة على الواقع الثقيل !

• • •

وعندما ثاب الناس إلى إله واحد ، امتنع أن يعبد الناس الناس ؛ ووقف الجميع رافعى الرؤوس أمام بعضهم البعض . يوم انحنت كل الرؤوس للإله الواحد القاهر فوق عباده . وانتهت أسطورة الدماء المتفاضلة ، والأجناس المتفاضلة ، ووراثة الشرف والحكم والسلطان ..

ولكن كيف وقع هذا ؟

لقد كان هناك « واقع » اجتماعى ، وراءه مصالح طبقية وعنصرية ، مادية ومعنوية . واقع سائد فى الجزيرة العربية ، وسائد فى الأرض من حولها . واقع ليس محل اعتراض أحد ، لأن المنتفعين به لا يسأمونه ، والرازحين تحته لا ينكرونه !

كانت قريش تسمي نفسها «الحمس»، وتفرض لنفسها حقوقا وتقاليد ليست لسائر العرب . وتقف في الحج بالمزدلفة حين يقف الناس جميعا بعرفات ! ويقيمون على هذه الامتيازات منافع اقتصادية يفرضونها على سائر العرب . فيحتمون عليهم ألا يطوفوا بالبيت إلا في ملابس يشترونها من قريش ! وإلا طافوا بالبيت عراة !

وكانت الأرض كلها من حول الجزيرة تعج بالتفرقات القائمة على اختلاف الدماء والأجناس وتفاضلها . .

« كان المجتمع الإيراني مؤسسا على اعتبار النسب والحرف . وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ، ولا تصل بينها صلة . وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقارا لأمير أو كبير . وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه . ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها . وكان ملوك إيران لا يولون وضيعا وظيفة من وظائفهم . وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزا واضحا ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع »(١)

« وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي . وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة ، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدسا . فكانوا يكفّرون لهم ، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم،

---

(١) عن كتاب إيران في عهد الساسانيين تأليف البروفسور أورتهر سين . نقلا عن كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للأستاذ السيد أبو الحسن الندوي .

ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر ، لا يجرى اسمهم على لسانهم . ولا يجلس أحدهم فى مجلسهم ؛ ويعتقدون أن لهم حقا على كل إنسان . وليس لإنسان حق عليهم. وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعمهم فإنما هو صدقة وتكرم ، من غير استحقاق ، وليس للناس قبلهم إلا السمع والطاعة . وخصصوا بيتاً معيناً — وهو بيت الكيانى — فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ، ويجبوا الخراج . وهذا الحق ينتقل فيهم كابرا عن كابر ، وأبا عن جد ، لا ينازعهم ذلك إلا ظالم ، ولا ينافسهم إلا دعىّ نذل . فكانوا يدينون بالملك وبالوراثة فى البيت المالك ، لا يبغون به بدلا ، ولا يرون عنه محيصا . فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيرا ملكوا عليهم طفلا . وإذا لم يجدوا رجلا ملكوا عليهم امرأة . فقد ملكوا بعد « شيرويه » ولده «أردشير » ، وهو ابن سبع سنين . وملك « فرخ زاد خسرو بن كسرى أبرويز » ، وهو طفل . وملكوا بوران بنت كسرى . وملكت كذلك ابنة كسرى ثانية يقال لها : « ازرمى دخت » ، ولم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم قائدا كبيرا ، أو رئيسا من رؤسائهم ، مثل « رستم » و « جابان » ، وغيرهما . لأنهم ليسوا من البيت الملكى ! » (1)

وكان نظام الطبقات فى الهند من أعنف وأبشع ما يصنع الإنسان بالإنسان .

« وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت فى الهند الحضارة البرهمية ؛ ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى ، وألف فيه قانون

(1) عن كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد أبو الحسن الندوى .

مدنى سياسى اتفق عليه ، وأصبح قانونا رسميا ، ومرجعا دينيا . فى حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن : « منوشاستر » . .

«ويقسم هذا القانون الأهالى إلى أربع طبقات متميزة وهى (١) البراهمة طبقة الكهنة ورجال الدين . (٢) شترى : رجال الحرب . (٣) ويش : رجال الزراعة والتجارة . (٤) شودر : رجال الخدمة .

ويقول « منو » مؤلف هذا القانون :

« إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه ، وشترى من سواعده وويش من أفخاذه ، والشودر من أرجله ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم . فعلى البراهمة تعليم « ويد » (١) أو تقديم النذور للآلهة ، وتعاطى الصدقات . وعلى «الشترى» حراسة الناس ، والتصدق وتقديم النذور ودراسة « ويد » والعزوف عن الشهوات . وعلى « ويش » رعى السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة « ويد » والتجارة والزراعة . وليس « لشودر » إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث !

« وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقا ألحقتهم بالآلهة . فقد قال : إن البراهمة هم صفوة الله ، وهم ملوك الخلق ، وإن ما فى العالم هو ملك لهم ، فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر — من غير جريرة — ما شاءوا . لأن العبد لا يملك شيئا ، وكل ماله لسيده . وأن البرهمى الذى يحفظ

(١) الكتاب المقدس .

« ريك ويد » (الكتاب المقدس) هو رجل مغفور له ، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله : ولا يجوز للملك حتى فى أشد ساعات الاضطرار والفاقة أن يجبي من البراهمة جباية ؛ أو يأخذ منهم إتاوة ، ولا يصح لبرهمي فى بلاده أن يموت جوعا ، وإن استحق برهمى القتل ، لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه ، أما غيره فيقتل !

« أما الشترى فإن كانوا فوق الطبقتين (ويش وشودر) ولكنهم دون البراهمة بكثير . فيقول : « منو » إن البرهمى الذى هو فى العاشرة من عمره يفوق الشترى الذى ناهز مئة ، كما يفوق الوالد ولده !

« أما شودر « المنبوذون » فكانوا فى المجتمع الهندى — بنص هذا القانون المدنى الدينى — أحط من البهائم ، وأذل من الكلاب . فيصرح القانون بأن « من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة ، وليس لهم أجر أو ثواب بغير ذلك . وليس لهم أن يقتنوا مالا ، أو يدخروا كنزا فإن ذلك يؤذى البراهمة ! وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمى يدا أو عصا ليبطش به قطعت يده ، وإذا رفسه فى غضب فدعت رجله : وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوى إسته ، أو يحرمه وينفيه من البلاد . وأما إذا مسه بيد ، أو سبه ، فيقتلع لسانه . وإذا ادعى أنه يعلمه ـــــ سقى زيتا فائرا . وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ، ورجل من الطبقة المنبوذة ، سواء !!![1] » .

---

(١) المصدر السابق .

أما الحضارة الرومانية الشهيرة فقامت على أساس الترف ، الذى يوفره ثلاثة أرباع سكانها من العبيد ، للربع الباقى من الأشراف ! وعلى أساس التفرقة فى نصوص القانون بين السادة والعبيد . وبين الطبقات الكريمة والوضيعه :

جاء فى مدونة جوستنيان القانونية الشهيرة :

« ومن يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء ، فعقوبته ــ إن كان من بيئة كريمة ــ مصادرة نصف ماله . وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفى من الأرض »[(١)].

وبينما كان هذا « الواقع » سائدا فى الأرض كلها ، كان الإسلام يخاطب « الفطرة » من تحت ركام الواقع . الفطرة التى تنكر هذا كله ولا تعرفه . وكانت استجابة الفطرة لنداء الإســـلام أقوى من هذا الواقع الثقيل .

استمعت الفطرة إلى الله ـ سبحانه ـ يقول للناس جميعا :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . . [الحجرات : ١٣]

واستمعت إليه ـ سبحانه ـ يقول لقريش خاصة : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » . . . [البقرة : ١٩٩]

واستمعت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول للناس جميعا :

« أيها الناس ـ إن ربكم واحد . وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من

---

(١) ص ٣١٧ ترجمة عبد العزيز فهمي .

ترابه إن أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى » .

واستمعت إليه يقول لقريش خاصة :

« يا معشر قريش . اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئا . ويا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب ، ما أغني عنك من الله شيئا . يا فاطمة بنت محمد : سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئا » . . . [متفق عليه]

استمعت الفطرة إلى النداء المستجاب ؛ وأزاحت عنها ركام « الواقع » وانطلقت مع المنهج الإلهي . . . ووقع ما وقع وفق سنة الله المطردة ، القابلة للوقوع في كل حين .

* * *

وكان النظام الربوي هو السائد في الجزيرة العربية ، وعليه يقوم اقتصادها الأساسي . ولا يحسبن أحد أنها كانت مجرد معاملات فردية في حدود ضيقة . فقد قامت لقريش تجارة ضخمة مع الشام في رحلة الصيف ، ومع اليمن في رحلة الشتاء . وكانت توظف في هذه التجارة رؤوس أموال قريش . ولا يجوز أن ننسى أن قافلة أبي سفيان التي ترصد لها المسلمون في غزوة بدر ، ثم أفلتت منهم ، وقسم الله لهم ما هو خير منها ، كانت تحوي ألف بعير موسوقة بالبضائع ! ولو كان الربا مجرد معاملات فردية محدودة ، لا نظاما شاملا للحياة الاقتصادية ما استحق من الله - سبحانه - هذه الحملة المفزعة المتكررة في القرآن ، ولا متابعة تلك الحملة من الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حديثه !

هذه الأموال ، وهذه الحركة التجارية ، وهذا الاقتصاد الذي يقوم عليها ، كان يقوم كله على أساس النظام الربوي. وفيه تجمعت اقتصاديات البلاد تقريبا قبيل البعثة. فكذلك كانت تقوم الحياة في المدينة. وأصحاب اقتصادها هم اليهود. والربا قاعدة اقتصاد اليهود!

وكان هذا « واقعا » اقتصاديا تقوم عليه حياة البلاد!

ثم جاء الإسلام.. جاء ينكر هذا الأساس الظالم الجارم؛ ويعرض بدله أساسا آخر: أساس الزكاة والقرض الحسن والتعاون والتكافل.

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون. الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس. ذلك بأنهم قالوا: إنما البيع مثل الربا. وأحل الله البيع وحرم الربا. فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ، وأمره إلى الله. ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يمحق الله الربا ويربي الصدقات. والله لا يحب كل كفار أثيم. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون. وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون. واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ،

ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ».

[البقرة : ٢٧٤ — ٢٨١]

ووجدت الفطرة أن دعوة الله خير مما هي فيه . واشمأزت من الأساس الهابط الذي يقوم النظام الربوي عليه . ومع مشقة الانتقال في الأوضاع الاقتصادية التي تقوم عليها حياة الناس ، فقد كانت استجابة الفطرة أقوى من ثقل « الواقع » . وتطهر المجتمع المسلم من تلك الوثة الجاهلية . وكان ما كان . وفق سنة الله التي تتكرر كلما دعيت الفطرة فانتفضت من تحت الركام والأنقاض !

* * *

ونكتفي في هذا الفصل بهذه الأمثلة الثلاثة من مغالبة الفطرة للواقع ، وانتفاضها من تحت الركام والأنقاض : وانتصارها على الواقع الخارجي الذي أنشأته الجاهليات . . وهي تمثل واقع العقيدة والتصور . وواقع الأوضاع والتقاليد . وواقع الاقتصاد والتعامل . . وهي أقوى ألوان « الواقع » الذي يراه من لا يدركون قوة العقيدة ، وقوة الفطرة ، وكأنه هو الحقيقة الساحقة التي لا قبل بها لفطرة ولا عقيدة !

إن الإســـلام لم يقف مستسلما عاجزا مكتوف اليدين أمام هذا « الواقع » . ولكنه ألغاه ، أو بدله ، وأقام مكانه بناءه السامق الفريد ، على أساسه القوي العميق .

وما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى . فقد حدث ما حدث وفق سنة جارية ، لا وفق معجزة خارقة . وقد قام ذلك البناء على رصيد

الفطرة المدخر لكل من يستنفذ هذا الرصيد ، ويجمعه ، ويوجهه ، ويطلقه فى اتجاهه الصحيح .

والبشرية اليوم قد تكون أقدر على هذا الاتجاه الصحيح. بما استقر فى تاريخها وفى حياتها من آثار ذلك المد الأول : الذى واجه أقسى المعارضة ،ثم انساح فى طريقه ؛ وخلف من بعده أعمق الآثار ..

رَصِيدُ التَجْرِبَة

عندما واجه الإسلام البشرية — أول مرة — كان يواجه هذا الواقع برصيد الفطرة وحده . كان رصيد الفطرة مع هذا الدين؛ على الرغم من الأجيال الطويلة التى انقضت وهى تراكم فوقه أنقاض الواقع الجاهلى العريض .. ولكن انتفاض الفطرة كان أقوى من كل ذلك الركام ؛وكانت استجابة الفطرة كافية لنفض ذلك الركام .

وكانت تلك الفترة العجيبة . وكانت تلك القمة السامقة . وكان ذلك الجيل الفارع . وكانت تلك المنارة الوضيئة .. كانت — كما قلنا — قدراً من أقدار الله ، وتدبيرا من تدبيره ، لتتجسم هذه الصورة الفريدة ، فى أوضاع حياة واقعية ، يمكن — فيما بعد — الرجوع إليها فى صورتها الواقعية ، ومحاولة تكرارها على مدى الزمن ، بقدر ما تتهيأ لها البشرية !

إنها لم تكن ثمرة طبيعية لبيئتها — وقتذاك — ولكنها كانت ثمرة الرصيد المتجمع للفطرة ؛عندما وجدت المنهج والقيادة والتربية والحركة التى تجمع هذا الرصيد وتدفعه هذه الدفعة القوية . .

ولكن البشرية بجملتها لم تكن قد تهيأت بعد للاستقامة طويلا على تلك القمة السامقة . التى تسنمتها تلك الجماعة المختارة على عين الله..فلما انساح الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها بتلك السرعة العجيبة ، التى لم يعرف لها التاريخ نظيرا . ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأصبحت كثرة

الأمة الإسلامية ليست هي التي تلقت تلك التربية الفريدة العميقة البطيئة التي تلقتها الجماعة المختارة ..

ثم وقع هنا كله أخذ ضغط الرواسب الجاهلية في نفوس الجماهير الغفيرة . والكثرة الكاثرة في جموع الأمة التي دانت للإسلام ، يثقل ، ويجذب الجسم كله من تلك القمة السامقة ، إلى الأرض المستوية ! الجسم الذي لا يرفعه إلى تلك القمة السامقة إلا الوثبة الكبرى ، التي وثبتها تلك الجماعة المختارة ، بدفعة التربية الفريدة العميقة البطيئة ، التي جمعت رصيد الفطرة وأطلقته في هذا الاتجاه البعيد !

ومن ثم استوى المجتمع المسلم — قرابة ألف عام — لا على تلك القمة السامقة ؛ ولكن في مستويات متفاوتة ، كلها أرفع من مستويات المجتمعات الأخرى في أرجاء الأرض . . وذلك مع استمداد تلك المجتمعات من ذلك المجتمع الرفيع ؛ كما شهد التاريخ المنصف . وما أقل التاريخ المنصف !

* * *

تلك الوثبة الكبرى الفريدة في تاريخ البشرية ؛ وهذه الألف عام من المستويات الرفيعة .. لم تذهب كلها سدى ، ولم تتبدد من عالم الحياة ضياعاً ، ولم تترك البشرية بعدها كما تسلمتها من قبل .

كلا ! فليس ذلك من سنة الله في الحياة والناس . فالبشرية وحدة متماسكة على مدار الزمان وجسم البشرية جسم حي ؛ ينتفع بزاد التجارب ، ويدخر رصيد المعرفة . ومهما تجمع فوقه ركام الجاهلية التي ارتدت إليها

البشرية ؛ ومهما ران عليها العمى والظلام ؛ فإن الرصيد باق مكنون ، بل هو سار فى الجسم على العموم !

وإذا كانت الدعوة إلى الإسلام فى المرة الأولى، لم تجد إلا رصيد الفطرة تواجه به واقع البشرية (وذلك دون أن نغفل الرصيد الضئيل المتبقى كالذبالة من بقايا الرسالات الأولى التى كانت رسالات فى أقوام، ولم تكن للبشر كافة كالإسلام) فإنها اليوم تجد إلى جانب رصيد الفطرة المكنون، رصيد الموجة الأولى لهذا المنهج الإلهى فى حياة البشرية جمعاء — من آمن بالإسلام ، ومن دخل فى حكم الإسلام ،ومن تأثر على البعد بالمد الإسلامى العريض — كما تجد رصيد التجارب البشرية المريرة ، التى عانتها فى التيه ؛ حين بعدت عن الله ، وعانت فى ذلك التيه مرارة الحياة !

والمبادىء والتصورات ، والقيم والموازين ، والنظم والأوضاع ، التى واجه بها الإسلام البشرية أول مرة وليس معه إلا رصيد الفطرة فأنكرتها أشد الإنكار ؛ وتنكرت لها كل التنكر ؛ وقاومتها كل المقاومة ؛ لأنها — يومئذ — كانت غريبة كل الغرابة ؛ وكانت المسافة بينها وبين واقعها سحيقة هائلة . . .

هذه المبادىء والتصورات، والقيم والموازين ، والأنظمة والأوضاع، قد استقرت فى حياة جماعة من البشر — وهى فى صورتها الكاملة — فترة من الزمان . ثم استقرت فى حياة العالم الإسلامى العريض — فى مستويات متفاوتة — فترة طويلة أخرى . ثم عرفت فى حياة الجماعة البشرية كلها تقريبا . خلال نيف وثلاثمئة وألف عام .. عرفت على الأقل دراسة ورؤية وفرجة ! إن لم تعرف مزاولة وعملا وتجربة !

ومن ثم لم تعد غريبة — على البشرية — كما كانت يوم جاءها بها الإسلام أول مرة . ولم تعد منكرة فى حسها وعرفها كما كانت يومئذ !

حقيقة إن البشرية لم تتذوقها قط ، كما تذوقتها الجماعة المختارة ، وفى تلك الفترة الفريدة . وحقيقة إنها حين حاولت تطبيق بعضها فى أزمنة متفاوتة — بما فى ذلك العصر الحديث — لم تدرك روحها قط ، ولم تطبقها بهذه الروح . وحقيقة إنها — حتى اللحظة — ما تزال تطلع وهى تدرج فى المرتقى الذى وثبت إليه الجماعة المسلمة الأولى . .

كل هذا صحيح . ولكن البشرية بجملتها — من الناحية التصورية الفكرية — قد تكون أقرب إلى إدراك طبيعة ذلك المنهج ، وأقدر على حمله كذلك — منها يوم جاءها أول مرة . غريبا عليها كل الغرابة .

* * *

والأمثلة المحددة تقرب هذه الحقيقة وتوضحها . ونحن نكتفى بذكر القليل منها دون الإحاطة بها . وذلك لاعتبارين هامين :

أولهما : طبيعة هذا البحث المجمل المختصر ؛ الذى لا يزيد على أن يكون مجرد إشارات دالة ، إلى عناصر الموضوع الكبير الذى يتناوله موضوع « هذا الدين » . .

وثانيهما : أن الخطوط العريضة التى تركتها موجة المد الطويلة لهذا المنهج ، فى حياة البشرية كلها ، وفى أنحاء الأرض جميعاً ، أكثر عدداً ، وأضخم أثرا ، وأوسع مساحة ، من أن يحيط بها كاتب واحد ، فى بحث واحد ، وفى عصر واحد . فهذه الآثار قد ترسبت فى حياة البشرية كلها ،

منذ ذلك العهد البعيد ؛ وشملت حياة البشرية كلها على نطاق واسع ؛ وتأثرت به جوانب قد لا تكون كلها ظاهرة ، وقد لا تكون كلها مما تجلته الملاحظة .

وإنه ليمكن القول — على وجه الإجمال — إن هذه الظاهرة الكونية ، التي تجلت على هذا الكوكب الأرضي ، وتمت في حياة هذه البشرية .. وهي ظاهرة هذا الدين .. لم تدع جانبا واحدا من حياة البشرية منذ ذلك التاريخ ، إلا وتجلت فيه وتركت فيه تأثيرا تتفاوت درجاته ، ولكنه واقع لا شك فيه . فإن كل حركة من حركات التاريخ الكبرى قد استمدت مباشرة أو غير مباشرة من ذلك الحدث الكبير ؛ أو — بتعبير أصح — من هذه الظاهرة الكونية الضخمة .

* * *

إن حركة الإصلاح الديني ، التي قام بها مارتن لوثر وكالفن في أوربا . وحركة الإحياء التي تفتحت منها أوربا حتى اليوم . وحركة تحطيم النظام الإقطاعي في أوربا ، والانطلاق من حكم الأشراف . وحركة المساواة وإعلان حقوق الإنسان التي تجلت في الماجنا كرتا في انجلترا والثورة الفرنسية في فرنسا . وحركة المذهب التجريبي التي قام عليه مجد أوربا العلمي ، وانبعثت منها الفتوحات العلمية الهائلة في العصر الحديث .. وأمثالها من الحركات الكبرى ، التي يحسبها الناس أصولا في التطور التاريخي .. كلها قد استمدت من ذلك المد الإسلامي الكبير ، وتأثرت به تأثرا أساسيا عميقا ..

جاء فى كتاب « ضحى الإسلام » للدكتور أحمد أمين :

« ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام — من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى — أى فى القرنين الثانى والثالث الهجريين — ظهرت فى سبتمانيا (Septmania)[1] حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسس وأن ليس للقسس حق فى ذلك ؛ وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده فى غفران ما ارتكب من إثم . والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار . فطبيعى ألا يكون فيه اعتراف !

« وكذلك قامت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية (Iconoclasts) . ذلك أنه فى القرن الثامن والتاسع للميلاد — أى فى القرن الثالث والرابع الهجرى — ظهر مذهب نصرانى يرفض تقديس الصور والتماثيل . فقد أصدر الإمبراطور الرومانى « ليو » الثالث أمرا سنة ٧٢٦ م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمرا آخر فى سنة ٧٣٠ يعد الإتيان بهذا وثنية . وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع . على حين كان البابا « جريجورى الثانى والثالث » و « جرمانيوس » بطريرك القسطنطينية ، والإمبراطورة « إيرينى » من مؤيدى عبادة الصور . وجرى بين الطائفتين نزاع شديد : لا محل لتفصيله . وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام . ويقولون إن كلوديوس (Cloudius) أسقف تورين (الذى عين سنة ٨٢٨ م وحول ٢١٣ هـ) والتى كان يحرق

---

(١) سبتمانيا مقاطعة فرنسية قديمة فى الجنوب الغربى لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط

الصور والصلبان ، وينهى عن عبادتها فى أسقفيته ولدوربى فى الأندلس الإسلامية ».

... « كذلك وجدت طائفة من النصارى ، شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية ، وأنكرت ألوهية المسيح[1] .

* * *

وحينما عادت جيوش الصليبيين المتبربرة مرتدة عن الشرق الإسلامى فى القرن الحادى عشر الميلادى ، عادت ومعها صورة من حياة المجتمع الإسلامى . وعلى كل ما كان قد وقع من الانحرافات فى هذا المجتمع ، فإن الظاهرة البارزة فيه — بالقياس إلى ذلك القطيع الصليبى المتبربر — كانت ظاهرة الشريعة الواحدة ، التى يخضع لها الحاكم والمحكوم ؛ والتى لا تستمد من إرادة الشريف أو هوى صاحب الإقطاعية — كما كان الحال فى أوربا ؛ وظاهرة الحرية الشخصية فى اختيار نوع العمل ومكان الإقامة ؛ وظاهرة الملكية الفردية وحرية الاستثمار ؛ وظاهرة انعدام الطبقية الوراثية واستطاعة كل فرد فى أى وقت أن يرتفع بدرجته فى المجتمع وفق جهده واجتهاده وعمله . هذه الظواهر البارزة ، التى لا تخطئها عين الأوربى الذى كان يعيش فى نظام الإقطاع ، رقيقا للأرض ، قانونه هو إرادة السيد ، وطبقته حتمية لأن « الشرف » وراثى !

ومن هنا — بمساعدة العوامل الاقتصادية الأخرى فى حياة المجتمع الأوربى — انطلقت الصيحات التى حطمت النظام الإقطاعى تدريجا ؛

(١) نحو الإسلام ص ١٦٤ — ١٦٥ .

وأعلنت تحرير الأفراد من رق الأرض . وإن لم تحررهم من سائر القيود الأخرى . ولم ترفع مجتمعهم إلى مستوى المجتمع الإسلامى !

• • •

ومن جامعات الأندلس ، ومن تأثير حضارة الشرق الإسلامى ، التى أصبحت حضارة عالمية ؛ ومن الترجمات الأوربية لتراث العالم الإسلامى انبثقت حركة الإحياء الأوربية فى القرن الرابع عشر وماتلاه . وانبثقت كذلك الحركة العلمية الحديثة ، وبخاصة الطريقة التجريبية :

يقول « بريفولت » مؤلف كتاب : « بناء الإنسانية » : . (Making of Humanity)

« لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية(1) على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج . . إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا ، لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ؛ ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة . بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية . فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى

---

(1) يلاحظ أن الكتاب الغربين يحرصون على تسمية الحضارة الإسلامية باسم الحضارة العربية . وذلك عن خبث ومكر منهم . فكلمة إسلامية ، ثقيلة على قلوبهم . وهم بهذا يريدون حصر الإسلامية فى العربية . والإسلامية أوسع من هذا النطاق الضيق الصغير . وهم يريدون كذلك إحياء العنصرية البغيضة بين الجماعات الإسلامية ، التى أماتها الإسلام . وكلها أغراض ماكرة خبيثة ! ! !

إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون ، وتم ما تكون ، فى نشأة تلك الطاقة ، التى تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره : أى فى العلوم الطبيعية . وروح البحث العلمى » .

ويستطرد فيقول :

« إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ؛ بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا : إنه يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم — كما رأينا — لم يكن للعلم فيه وجود وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية ، استجلبوها من خارج بلادهم ؛ وأخذوها عن سواهم ؛ ولم تتأقلم فى يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب ، وعمموا الأحكام ، ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبى . . كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى . أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة . ولطرق من الاستقصاء مستحدثة . من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان . . وهذه الروح . وتلك المناهج العلمية ، أدخلها العرب إلى العالم الأوربى » [1] .

---

(١) عن كتاب « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » تأليف الفيلسوف محمد إقبال . وترجمة الأستاذ عباس محمود ص ١٤٩ — ١٥٠ .

وقبل ذلك يقول :

« وإن « ردجر بيكون » درس اللغة العربية والعلم العربي في مدرسة « أكسفورد » على خلفاء معلميه العرب في الأندلس . وليس لـ « ردجر بيكون » ، ولا لسميه « فرنسيس بيكون » الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي . فلم يكن ردجر بيكون ، إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية . وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية. وقد كان منهج العرب في عصر « بيكون » قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربوع أوربا .

« من أين استقى « ردجر بيكون » ما حصله من العلوم ؟

« من الجامعات الإسلامية في الأندلس . والقسم الخامس من كتابه (Cepus Majus) الذي خصصه للبحث في البصريات ، هو في حقيقة الأمر نسخة من كتاب « المناظر لابن الهيثم » (١) .

ويقول دربر الأستاذ بجامعة نيويورك في كتابه : « النزاع بين العلم والدين » :

« تحقق علماء المسلمين من أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم ؛ وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٨ من الترجمة العربية .

الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم ، الأسلوب التجريبي ، والدستور العملي الحسي .

« إن نتائج هذه الحركة العملية تظهر جلية فى التقدم الباهر الذى نالته الصناعة فى عصرهم ، وإننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ، ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر . ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية ـــ الذى يعتبر مذهبا حديثا ـــ كان يدرس فى مدارسهم . وقد ذهبوا فيه إلى أبعد مما وصلنا إليه . وذلك بتطبيقه على الجوامد والمعادن (١) . . وقد استخدموا علم الكيمياء فى الطب ،

---

(١) يجب الاحتراس من مثل هذا القول ، الذى يلقيه المؤلفون الغربيون ، فى معرض إنصافهم للإسلام والتفكير الإسلامى . فمذهب النشوء والارتقاء كما قرره دارون وولاس ، شيء آخر غير ما قرره المسلمون فى بحثهم العلمى المؤمن البرىء من لوثة الهروب من الكنيسة ومن إله الكنيسة فى العالم الغربى ! وقد لاحظ علماء المسلمين التدرج فى مراتب الخلائق . وبدأوا من صفات المادة الجامدة ورأوا أنها تنتهى عند أول مراتب الحياة النباتية . ورأوا أن هذه تنتهى عند أول مراتب الحياة الحيوانية . ثم تترقى منه الحياة . ولكنهم ردوا كل ذلك إلى تقدير الله وفاعلية الله . أما دارون فقد حرص على نفى تدخل أى عنصر غيبى فى النشوء والارتقاء . لأنه كان هاربا من الكنيسة ومن إله الكنيسة التى باسمه تضطهد العلم والبحث العلمى على الإطلاق . كذلك لم تتطرق إلى بحوث علماء المسلمين لوثة تحقير الإنسان وتجريده من كل عنصر روحي ورده إلى أصل حيوانى . فالنظرية الإسلامية صريحة فى أن الإنسان خلق مستقل . وإن كان يجلس على قمة مراتب الكائنات الحية من حيث تكوينه العضوى واستعداده العقلى والروحي . ولكنه كان هكذا لأن الله سبحانه أنشأه ابتداء كما أنشأ سائر الخلائق فى مراتبها التى وجدت عليها . . فهناك فارق كبير فى أصل النظرة مع سبق المسلمين فى البحث العلمي .

ووصلوا فى علم الميكانيكا إلى أنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة ؛ ووصلوا فى نظريات الضوء والإبصار إلى أن غيروا الرأى اليونانى القائل بأن الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئى ، وقالوا بالعكس . وكانوا يعرفون نظريات انعكاس الأشعة وانكسارها . وقد اكتشف الحسن ابن الهيثم الشكل المنحنى الذى يأخذه الشعاع فى سيره فى الجو ؛ وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة فى الأفق ؛ وكذلك نراهما فى المغرب بعد أن يغيبا بقليل » (١) .

* * *

ونكتفى بهذا القدر من الآثار الوقعية للنهج الإسلامى وللحياة الإسلامية ، فى تاريخ البشرية ، وفى الحركات العالمية الكبرى . نكتفى بهذا القدر بوصفه مجرد إشارة إلى هذه الحقيقة الضخمة الممتدة الأطراف التى كثيرا ما ننساها ، ونحن نشهد البناء الحضارى الراهن ؛ ويخيل إلينا — فى سذاجة وغفلة — أنه لا نصيب لنا فيه ، ولا أثر لنا فى نشأته ؛ وأنه شىء أضخم منا ومن تاريخنا الذى نجهله مع الأسف الشديد ؛ ثم نتلقاه من أفواه أعدائنا ؛ الذين لا هم لهم إلا أن يملأوا قلوبنا باليأس من إمكان الحياة الإسلامية ، وفق المنهج الإسلامى . وهم أصحاب مصلحه فى هذا اليأس ؛ لأنه يؤمنهم من الكرة عليهم ، ومن استرداد زمام القيادة العالمية منهم .. فما بالنا نحن يا ترى نتلقف ما يقولونه . ونردده كالببغاوات والقرود ؟

(١) عن كتاب : الإسلام دين عام خالد للأستاذ محمد فريد وجدى ص ٢٣٣ طبعة ثانية .

وعلى أى فهذا ليس موضوعنا هنا . إنما نحن نمهد بهذه الإشارة إلى إشارة أخرى نحو الخطوط العريضة التى خطها المد الإسلامى الأول ؛ وعرفها البشرية ؛ فأصبحت البشرية اليوم أقدر على إدراكها وتصورها . وهى الرصيد الجديد الذى يضاف إلى رصيد الفطرة القديم !

خطوط مستقرة

عندما انحسرت موجة المد الإسلامى العالية عن هذه الأرض ؛ وحينما استردت الجاهلية زمام القيادة ، التى كان الإسلام قد انتزعها منها ؛ وعندما عاد الشيطان ينفض غبار المعركة عن كاهله ، وينهض من عثرته ، ويهتف لحزبه الذى عاد يتسلم الزمام !

عندما حدث هذا كله لم ترتد حياة البشرية تماما إلى أوضاعها المتخلفة فى الجاهلية الأولى . . لقد كان الإسلام هناك - حتى وهو يتراجع عن مكان الصدارة فى الأرض - وكانت هنالك من ورائه خطوط عريضة ، ومبادىء ضخمة ، قد استقرت فى حياة البشرية ، وصارت مألوفة للناس وزالت عنها الغرابة التى استقبلوها بها يوم جاءهم بها الإسلام أول مرة .

هذه الخطوط العريضة ، وهذه المبادىء الضخمة هى التى سنحاول الإشارة إلى نماذج قليلة منها فى هذا الفصل على سبيل الإجمال .

* * *

إنسانية واحدة :

من العصبية القبلية ، بل عصبية العشيرة ، بل عصبية البيت ، التى كانت تسود الجزيرة العربية .. ومن عصبية البلد ؛ وعصبية الوطن ؛ وعصبية اللون ؛ وعصبية الجنس .. التى كانت تسود وجه الأرض كله ..

من هذه العصبيات الصغيرة التي لم تكن البشرية تتصور غيرها في ذلك الزمان ، جاء الإسلام ليقول للناس : إن هناك إنسانية واحدة ، ترجع إلى أصل واحد ، وتتجه إلى إله واحد . وإن اختلاف الأجناس والألوان ، واختلاف الرقعة والمكان ، واختلاف العشائر والآباء ... كل أولئك لم يكن ، ليتفرق الناس ويختصموا ، ويتحوصلوا وينعزلوا . ولكن ليتعارفوا ويتآلفوا ؛ وتتوزع بينهم وظائف الخلافة في الأرض ؛ ويرجعوا بعد ذلك إلى الله الذي ذرأهم في الأرض واستخلفهم فيها . وقال لهم الله سبحانه في القرآن الكريم :

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير » ...
(الحجرات : ١٣)

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا » ... (النساء : ١)

« ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين » ... (الروم : ٢٢)

ولم تكن هذه مبادىء نظرية ؛ ولكنها كانت أوضاعا عملية . لقد انساح الإسلام في رقعة من الأرض فسيحة ؛ تكاد تضم جميع الأجناس وجميع الألوان .. وذابت كلها في النظام الإسلامي . ولم تقف وراثة لون ، ولا وراثة جنس ، ولا وراثة طبقة ، ولا وراثة بيت ، دون أن يعيش

الجميع إخوانا ؛ ودون أن يبلغ كل فرد منهم ما تؤهله له استعداداته الشخصية . وما تكفله له صفته الإنسانية .

واستقر هذا الخط العريض فى الأرض ؛ بعد أن كان غريبا فيها أشد الغرابة ، ومستنكراً فيها كل الاستنكار .. وحتى بعد انحسار المد الإسلامى لم تستطع البشرية أن تتنكر له كل التنكر ؛ ولم تعد تستغربه كل الاستغراب ..

حقيقة : إنها لم تستطع أن تتمثله كما تمثله الجماعة المسلمة ؛ ولم يستقر فيها استقراره فى المجتمع الإسلامى .

وحقيقة : إن عصبيات شتى صغيرة مازال تعيش. عصبيات الأرض والوطن . وعصبيات الجنس والقوم . وعصبيات اللون واللسان .

وحقيقة : إن الملونين فى أمريكا وجنوب إفريقيا يؤلفون مشكلة حادة بارزة،كما يؤلفون مشكلة ناعمة مستترة فى أوربا كلها !

ولكن فكرة الإنسانية الواحدة مازال خطا عريضا فى مقامات البشرية اليوم ؛ ومايزال هذا الخط الذى خطه الإسلام هو أصل التفكير البشرى ـ من الناحية النظرية ـ ومازال تلك العصبيات الصغيرة تمزع وتختنق ؛ لأنها ليست أصيلة ولا فوعة !

لقد انحسر المد الإسلامى الأول ، التى استمد من رصيد الفطرة وحده ماخط به هذا الخط العريض . ولكنه ترك للمد التالى رصيد الفطرة ورصيده الذاتى . لتستمد منه الجولة القادمة . والبشرية أكثر

إدراكا ، وأكثر استعداداً ، وقد زالت عنها دهشة المفاجأة بهذا الخط الجديد !!!

* * *

إنسانية كريمة :

وجاء الإسلام والكرامة الإنسانية وقف على طبقات معينة ، وعلى بيوت خاصة ، وعلى مقامات معروفة . . أما الغثاء . غثاء الجماهير . فهو غثاء ! لاوزن له ولا قيمة ، ولا كرامة ! غثاء !!!

وقال الإسـلام كلمته المدوية : إن كرامة الإنسان مستمدة من « إنسانيته » ذاتها لامن أى عرض آخر كالجنس ، أو اللون ، أو الطبقة ، أو الثروة ، أو المنصب . . . إلى آخر هذه الأعراض العارضة الزائلة . . والحقوق الأصيلة للإنسان مستمدة إذن من تلك الإنسانية . التى ترجع إلى أصل واحد كما أسلفنا .

وقال لهم الله فى القرآن الكريم :

« ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (الإسراء : ٧٠)

« وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة »
(البقرة : ٣٠)

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » (البقرة : ٣٤)

« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه » .

(الجاثية : ١٣)

وعلم الناس منذئذ : أن الإنسان - بجنسه - كريم على الله . وأن كرامته ذاتية أصيلة : لا تتبع جنسه ، ولا لونه ، ولا بلده ، ولا قومه ، ولا عشيرته ، ولا بيته . ولا عرضا من هذه الأعراض الزائلة الرخيصة . إنما تتبع كونه إنسانا من هذا الجنس الذى أفاض عليه ربه التكريم .

ولم تكن هذه مبادىء نظرية ، إنما كانت واقعا عمليا ، تمثل فى حياة الجماعة المسلمة ، وانساحت به فى أرجاء الأرض ، فعلمته للناس ، وأقرته فى أوضاع حياتهم كذلك . وعلمت جمهور الناس .. ذلك الغثاء .. أنه كريم ، وأن له حقوقا ، هى حقوق الإنسان ، وأن له أن يحاسب حكامه وأمراءه ، وأن عليه ألا يقبل الذل والضيم والمهانة . وعلمت الحكام والأمراء ألا تكون لهم حقوق زائدة على حقوق الجماهير من الناس ، وأنه ليس لهم أن يهينوا كرامة أحد ممن ليس بحاكم ولا أمير .

وكان هذا ميلاداً جديداً « للإنسان » .. ميلادا أعظم من الميلاد الحسى .. فما الإنسان إذا لم تكن له حقوق الإنسان وكرامة الإنسان ؟ وإذا لم تكن تلك الحقوق متعلقة بوجوده ذاته وبحقيقته التى لا تتخلف عنه فى حال من الأحوال ؟

بدأ أبو بكر — رضى الله عنه — عهده بقوله :

« لقد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينونى . وإن أسأت فقومونى .. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » ...

وخطب عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقال يعلم الناس حقوقهم تجاه الأمراء :

« يا أيها الناس . إنى والله ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم . ولا ليأخذوا من أموالكم . ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم . فمن فعل به شيء من ذلك فليرفعه إلىّ . فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه . . . » فوثب عمرو بن العاص فقال :

« يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته ، فأدب بعض رعيته . إنك لتقص منه ؟

« قال عمر : إى والذى نفس عمر بيده . إذاً لأقصنه منه . وكيف لا أقص منه . وقد رأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقص من نفسه . ألا لاتضربوا الناس فتذلوهم . ولا تجمروهم[1] فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم » .

وكتب عثمان — رضى الله عنه — إلى جميع الأمصار كتابا قال فيه :

« إنى آخذ عمالى بموافاتى كل موسم وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ فلا يرفع علىّ شيء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته . وليس لى ولا لعمالى حق قبل الرعية لا متروك لهم . وقد رفع إلىّ أهل المدينة أن أقواماً يشتمون ويضربون . فمن ادعى شيئاً من تلك فليواف الموسم ، يأخذ حقه حيث كان ، منى أو من عمالى . أو تصدقوا ، إن الله يجزى المتصدقين » .

(١) لاتجمروهم . لاتبعدوهم طويلا عن بيوتهم وأزواجهم .

والمهم — كما أسلفنا — أن هذه لم تكن مجرد مبادىء نظرية ؛ أو مجرد كلمات تقال . فقد طبقت تطبيقاً واقعياً ؛ وسرت فى أوساط الشعوب حتى اتخذت قاعدة للأوضاع العملية .

وحادثة ابن القبطى الذى سابق ابن عمرو بن العاص ، فاتح مصر وواليها فسبقه فضربه ابن عمرو ، فشكا أبوه إلى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فأقصه منه فى موسم الحج وعلى ملأ من الناس . . حادثة معروفة .

وقد اعتاد الكتاب أن يقفوا فيها عند عدل عمر ... ولكن الحادثة أوسع دلالة على ذلك التيار التحررى الذى أطلقه الإسلام فى ضمائر الناس وفى حياتهم . .

فمصر إذ ذاك بلد مفتوح . حديث عهد بالفتح وبالإسلام . وهذا القبطى قبطى لم يزل على دينه ، فردا من جماهير البلد المفتوح . وعمرو ابن العاص هو فاتح هذا الإقليم ، وأول أمير عليه من قبل الإسلام . . وحكام هذا الإقليم قبل الفتح الإسلامى هم الرومان : أصحاب السياط التى تجلد ظهور شعوب المستعمرات ! ولعل ذلك القبطى كان مايزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان !

ولكن المد التحررى الذى أطلقه الإسلام فى أنحاء الأرض ، أنسى ذلك القبطى سياط الرومان وذلها : وأطلقه إنسانا حرا كريما ؛ يغضب لأن يضرب ابن الأمير ابنه ، بعد اشتراكهما فى سباق وهذه أخرى . ثم تحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريحة على أن يركب من

مصر إلى المدينة ، لا طيارة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطارا ، ولكن جملا ، يخب به ويضع الأشهر الطوال ، كل ذلك ليشكو إلى الخليفة .. الخليفة الذى حرره يوم فتح بلده تحت راية الإسلام ! والذى علمه الكرامة بعد أن نسيها تحت وقع سياط الرومان !

وهكذا ينبغى أن نفهم : وأن ندرك عمق المد الإسلامى التحررى. فليست المسألة فقط أن عمر عادل ؛ وأن عدله لا تتطاول إليه الأعناق فى جميع الأزمان . ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر — المستمد من الإسلام ومنهجه ونظامه — قد انطلق فى الأرض تيارا جارفا محررا مكرما للإنسان .. بصفته « الإنسان » ..

هذا المستوى الرفيع لم ترتفع إليه الإنسانية قط .. هذا صحيح .. ولكن هذا الخط العريض الذى خطه الإسلام، فى كرامة الإنسان وحريته وحقوقه تجاه حكامه وأمرائه ، قد ترك فى حياة البشرية آثارا لا شك فيها . وبعض هذه الآثار هو الذى يدفع بالبشرية اليوم إلى إعلان « حقوق الإنسان » ..

وحقيقة أن هذا الإعلان لم يأخذ طريقه الواقعى فى حياة البشرية . وحقيقة أن « الإنسان » مازال يلقى المهانة والإذلال والتعذيب والحرمان فى شتى أنحاء الأرض . وحقيقة أن بعض المذاهب تجعل مقام الإنسان دون مقام الآلة ، وتقتل حرية الإنسان وكرامته وخصائصه العليا فى سبيل وفرة الإنتاج ومضاعفة الدخل ، والتفوق فى الأسواق !

كل هذا صحيح . ولكن هذا الخط ما يزال قائما فى مدارك البشرية

وتصوراتها . ولم يعد غريبا عليها كما كان يوم جاءها الإسلام . وهي اليوم أقدر على إدراكه وتصوره ، حينما نخاطب به في الجولة القادمة بإذن الله

* * *

أمة واحـــدة :

وجاء الإسلام فوجد الناس يتجمعون على آصرة النسب ، أو يتجمعون على آصرة الجنس ، أو يتجمعون على آصرة الأرض ، أو يتجمعون على آصرة المصالح والمنافع القريبة . . وكلها عمليات لا علاقة لها بجوهر الإنسان : إنما هي أعراض طارئة على جوهر الإنسان الكريم .

وقال الإسلام كلمته الحاسمة في هذا الأمر الخطير ، الذي يحدد علاقات الناس بعضهم ببعض تحديدا أخيرا .

قال : إنه لا لون ولا جنس ، ولا نسب ولا أرض ، ولا مصالح ولا منافع . هي التي تجمع بين الناس أو تفرق . . إنما هي العقيدة . . هي علاقتهم بربهم التي تحدد علاقتهم بعضهم ببعض . فعلاقتهم بالله هي التي منحتهم إنسانيتهم . ومن ثم فهي التي تقرر مصائرهم في الدنيا والآخرة سواء . إن النفخة التي جاءتهم من روح الله هي التي جعلت من الإنسان إنسانا ؛ وهي التي كرمت هذا الإنسان وسخرت له ما في السماوات وما في الأرض فعلى أساس هذه الحقيقة يتجمع الناس أو يفترقون إذن ؛ لا على أساس أي عرض آخر طارىء على حقيقة الإنسان .

إن آصرة التجمع هي العقيدة ، لأن العقيدة هي أكرم خصائص

الروح الإنسانى . فأما إذا انبتت هذه الوشيجة فلا آصرة ، ولا تجمع ، ولا كيان !

إن الإنسانية يجب أن تتجمع على أكرم خصائصها ، لا على مثل ما تتجمع عليه البهائم من الكلأ والمرعى ، أو من الحد والسياج !

إن هناك حزبين اثنين فى الأرض كلها : حزب الله وحزب الشيطان. حزب الله الذى يقف تحت راية الله ويحمل شارته . وحزب الشيطان وهو يضم كل ملة وكل فريق وكل شعب وكل جنس وكل فرد لا يقف تحت راية الله .

والأمة هى المجموعة من الناس تربط بينها آصرة العقيدة . وهى جنسيتها . وإلا فلا أمة ، لأنه ليست هناك آصرة تجمعها . . والأرض ، والجنس ، واللغة ، والنسب ، والمصالح المادية القريبة ، لا تكفى واحدة منها ، ولا تكفى كلها لتكوين أمة ، إلا أن تربط بينها رابطة العقيدة .

الآصرة فكرة تعمر القلب والعقل ، وتصور يفسر الوجود والحياة . . ويرتبط بالله ، الذى من نفخة روحه صار الإنسان إنسانا ، وافترق عن البهائم والوحوش ، وافترق تجمعه عن تجمعها ، وامتاز بالتكريم من الله . .

وقال الله للمؤمنين به فى كل أرض ، وفى كل جيل ، ومن كل جنس ولون ، ومن كل فريق وقبيل ، على مدار القرون ، من لدن نوح عليه السلام ، إلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، إلى آخر الزمان :

« إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » .

(الأنبياء : ٩٢)

وفاصل بين الناس بعضهم وبعض على أساس العقيدة ؛ مهما تكن روابط النسب بينهم ، ووشائج الجنس والأرض . قال :

« لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم . أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون » . (المجادلة : ٢٢)

وجعل هنالك سبيلا واحداً للقتال ـ حيثما لا يكون بد من القتال ـ هو الجهاد فى سبيل الله . وحدد هدف المؤمنين وهدف غير المؤمنين تحديدا حاسما صريحا :

« الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ـ والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان . إن كيد الشيطان كان ضعيفا » .
(النساء : ٧٦)

وكان غريبا على البشرية كلها فى ذلك الزمان ، أن يتجمع الناس على عقيدة ، وألا يتجمعوا على أرض ، ولا على جنس ، ولا على لون ، ولا على تجارة ، ولا على أى عرض من الأعراض الزهيدة !

كانت هذه « المذهبية » بتعبير العصر الحاضر ، مسألة غريبة جدا يوم جاء بها الإسلام . . ولكن ها هى ذى البشرية فى الأيام الحاضرة تستسيغها ، فتجمع أوطان وأقوام ولغات وألوان وأجناس شتى . على . . على مذهب !

حقيقة إنها لا تتجمع على عقيدة فى الله ، إنما تتجمع على مذهب فى الاقتصاد أو الاجتماع . . ذلك أن البشرية هابطة . الأعراض القريبة أكرم عليها من الحقيقة الكبيرة . ولكنها على أية حال تدرك أن رابطة التجمع يمكن أن تكون عقيدة . يمكن أن تكون فكرة . يمكن أن تكون رابطة معنوية !

وهذا تقدم على كل حال !

وبقى أن ترتفع البشرية ، وأن تتطلع إلى ما هو أكرم وأعلى . وأن تدرج فى المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة . على حداء الإسلام فى الجولة القادمة . مزودة برصيد الفطرة القديم : ومستعينة كذلك بهذا الرصيد الجديد !

• • •

ذمة وخلق :

... ولكن الإسلام حين جمع الناس على آصرة العقيدة ، وجعلها هى قاعدة التجمع أو قاعدة التفرقة لم يجعل الإكراه على العقيدة قاعدة الحركة فيه ، ولا قاعدة التعامل . ولم يجعل شريعة الغاب والناب هى التى تحكم علاقاته بالآخرين ، الذين لا يعتنقون عقيدته . ولا يتجمعون على آصرته .

لقد فرض الله الجهاد على المؤمنين : لا ليكرهوا الناس على اعتناق الإسلام ؛ ولكن ليقيموا فى الأرض نظامه الشامخ العادل القويم . على أن يختار الناس عقيدتهم التى يحبون ، فى ظل هذا النظام الذى يشمل المسلم وغير المسلم ، فى عدل تام .

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم »
(البقرة : ٢٥٦)

واعتبر الأرض التى يسيطر عليها النظام الإسلامى وتحكمها الشريعة الإسلامية هى « دار الإسلام » سواء كان سكانها من معتنق عقيدته كلهم أو كان بعضهم من معتنق الديانات الأخرى .. واعتبر الأرض التى لا يسيطر عليها النظام الإسلامى ولا تحكمها الشريعة الإسلامية هى « دار الحرب » أياً كان سكانها !

ولم يترك الأمر لشريعة الغاب والناب فى العلاقات بين دار الحرب ودار الإسلام . بل نظم هذه العلاقات تنظيما دقيقا ، يحكمه الخلق والنظافة والاستقامة ..

فدار الإسلام إما أن تكون على عهد وميثاق مع دار الحرب ، فهو التعهد المرعى والميثاق المحفوظ ؛ لا غدر فيه ولا خيانة ؛ ولا مباغتة ولا مفاجأة . إلا أن ينقضى الأجل ، أو ينقض العهد أهل دار الحرب .

وإما أن تكون هناك موادعة ـ بلا معاهدة مؤقتة ـ فهى الموادعة إلا أن ينبذ إلى أهل دار الحرب ـ عند خوف الخيانة ـ ويعلنوا بانقضاء فترة الموادعة .

وإما أن تكون هى الحرب .. وللحرب قيود وضمانات . فإن جنحوا للسلم مؤثرين المعاهدة والجزية والرضى بالنظام الإسلامى ، مع حريتهم فى اختيار العقيدة ، فلهم ذلك على المسلمين :

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون : الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ، وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين . ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم » (الأنفال : ٥٥ - ٦١)

وأكد على الوفاء بالعهد ، مبطلا حجة « مصلحة الدولة » فإنها لا تجيز نقض العهود :

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هى أربى من أمة . إنما يبلوكم الله به ، وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » ... (النحل ٩١ - ٩٢)

فإذا كانت الحرب فهى الحرب التى لا تهتك فيها حرمة ؛ ولا يقتل فيها صبي ولا شيخ ولا امرأة ؛ ولا يحرق فيها زرع ، ولا يتلف فيها ضرع ؛ ولا يمثل فيها بإنسان ؛ ولا تصيب إلا المقاتلين الذين يحملون السلاح فى وجه المسلمين .. وهذه وصية أبى بكر لجيش أسامة وهو ذاهب لمقاتلة الروم :

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة . ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة . ولا تذبحوا شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ... اندفعوا باسم الله » . .

ولست أنوى هنا استقصاء قوانين المعاملات بين دار الإسلام ودار الحرب ، ولا بين المسلمين وسائر الأقوام . فهذا البحث المجمل ليس مكان هذا التفصيل .. إنما أريد أن أصل إلى الخط العريض الذى أقامه الإسلام فى الأرض ، للتعامل بين المعسكرات المختلفة ، حيث لم يكن لذلك الخط وجود . فما كانت الأمم — يوم جاء — تتعامل إلا بقانون السيف وحده ، أو قانون الغاب والناب — فمن كان يملك القوة فكل شىء له حلال . والمغلوب لا حقوق له على الإطلاق !

هذا الخط الإسلامى العريض لم يذهب ولم يمح من واقع البشرية . فقد بدأ العالم فى القرن السابع عشر الميلادى (القرن الحادى عشر الهجرى) فى التعامل على أساس من القانون ! وأخذ يخطو خطوات متوالية فى « القانون الدولى » وجعل يحاول إقامة هيئات دولية للتحكيم في القرن التاسع عشر : وظلت هذه التشكيلات تتأرجح بين النجاح والفشل حتى اللحظة الحاضرة . . ووجدت بحوث قوية وضخمة فى القوانين الدولية .

ومن ثم لم تعد الأنظمة التى جاء بها الإسلام غريبة غربتها يوم جاء .

حقيقة أن البشرية لم ترتفع قط إلى المستوى الأخلاقى الذى بلغته الجماعة المسلمة فى التعامل الواقعى .

وحقيقة أن نكسات قوية قد وقعت فى هذا العصر حتى فى القوانين الدولية النظرية التى وصل إليها الفقه القانونى فى العالم الغربى . فألغى شرط إعلان الحرب . ونقض المعاهدات ، وإنهاء الموادعات ! وأصبح الأمر غيلة أشد من حالة الوحوش فى الغاب !

وحقيقة إن دوافع الحرب والسلم لم ترتفع قط عن المصالح والمغانم والأسلاب والأسواق : ولم ترق قط إلى أفق الفكر والعقيدة والخير والعدل والصلاح التى يستهدفها الجهاد فى الإسلام .

كل هذا صحيح . ولكن خط التعامل الدولى على أساس من القانون المعروف لجميع الأطراف . . قد وجد . أوجده الإسلام لأول مرة . وخطه فى حياة البشرية ذلك المنهج الإلهى القويم الرفيع .

فإذا خوطبت البشرية مرة أخرى بهذا المنهج لم يكن هذا الخط غريبا عليها ولا مستنكرا . . قد تظل أسسه الأخلاقية الرفيعة غريبة على البشرية الواغلة فى مستنقع الجاهلية ، فترة من الزمان . ولكن أصل الخط وصورته لن تكون غريبة ولا مستنكرة .

والإسلام الذى اعتمد أول مرة على رصيد الفطرة وحده فى إقرار مبادئه ، ورسم خطوطه ، سيعتمد فى الجولة القادمة على ذلك الرصيد . ويعتمد — إلى جنبه — على تلك التجارب الواقعة المعهودة . وسيكون — بإذن الله — أقدر على استئناف خطواته من جديد . . بهذا الرصيد .

.. وَبَعْـــد !

وبعد ، فإننا لا نملك فى هذا البحث المجمل أن نمضى أكثر من هذا فى الحديث عن الخطوط العريضة التى خطها الإسلام فى حياة البشرية وتاريخها وواقعها ، والتى لم تكن معروفة من قبل ولا مألوفة ، والتى بقيت منها ملامح وآثار فى حياة البشر ، مهما تكن باهتة . ومهما تكن منحرفة ، ومهما تكن هابطة عن القمة السامقة التى ارتفع إليها الناس فى ظل المنهج الإلهى القويم . .

فهذه النماذج القليلة التى أشرنا إليها تصلح إشارة إلى عشرات الخطوط العريضة التى أقرها ذلك المنهج . بعد أن أنشأها إنشاء . ويمكن القياس عليها فى شتى جوانب الحياة البشرية خلال أربعمائة وألف عام .

* * *

ولكن الكلمة التى لا بد أن تقال فى ختام هذا البحث المجمل ، كى لا يغتر الدعاة إلى الله ، وإلى منهج الله ، بهذه العوامل المساعدة ، وينسوا أخذ الأهبة كاملة لأشواك الطريق وعوائقه . .

هذه الكلمة ينبغى أن تكون عن الخطوط المضادة ، وعن عوائق الطريق الكأداء !

إن البشرية بجملتها اليوم . . أبعد من الله . .

إن الركام الذى يرين على الفطرة أثقل وأظلم . فالجاهليات القديمة

كانت جاهليات جهل وسذاجة وفتوة . أما الجاهلية الحاضرة فجاهلية علم ! وتعقيد ! واستهتار !

إن الفتنة بفتوحات العلم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين كانت فتنة طاغية . والهروب من الكنيسة ومن إله الكنيسة الذى تصول باسمه وتجول ، وتحرق العلماء ، وتعذب المفكرين ، وتناهض النهضات . . كان هروبا مجنونا آبقا لا يلوى على شىء ؛ ولا يبقى على مقدس !

حقيقة إن العلم ذاته منذ مطلع هذا القرن قد أخذ يقود كبار العلماء إلى الله من جديد . والفطرة التى أشقاها الضرب فى التيه قد بدأ يبدو عليها التعب والحنين إلى الله من جديد . . ولكن تلك الفتنة ما تزال فى عنفوانها . وقد ينقضى هذا القرن كله قبل أن تظهر البوادر الكاملة لعودة القطيع الشارد من التيه البعيد .

• • •

والحياة الدنيا قد اتسعت رقعتها فى حس الناس وواقعهم ! اتسعت رقعتها بما استحدثته الحضارة من وسائل الحياة والمتاع والاستقرار فى الأرض ، وأحس الناس بضخامة هذه الحياة فى واقعهم وفى مشاعرهم سواء . وأضافت العلوم والثقافات والفنون والهوايات مساحات ضخمة إلى رقعة الحياة فى واقع الناس وفى مشاعرهم سواء .

ولو قام هذا كله على أساس من المعرفة بالله ، وبخصائص الألوهية وخصائص العبودية ، وعلى أساس من الحقيقة العميقة : حقيقة أن الله

هو الذى استخلف الإنسان فى الأرض » وسخر له ما فيها ، وزوده بالمواهب والاستعدادات التى تعينه على الخلافة ، وتيسر له طيبات الحياة كلها .. وأنه مبتلى فى هذا كله ليحاسب فى الآخرة على ما قدم فى حياته الدنيا ..

لو قام هذا كله على هذا الأساس الصحيح ، لكانت هذه المساحات الجديدة التى أضافها العلم وأضافتها الحضارة ، لرقعة الحياة فى واقع الناس ومشاعرهم .. مساحات تضاف إلى رقعة الإيمان ، وتزيد الناس قربا من الله ومنهجه القويم الممثل فى الإسلام .

ولكن هذا كله إنما قام على أساس الهروب من الكنيسة الطاغية ومن إلهها الذى تستطيل به على الناس ! فكانت هذه الإضافة إلى رقعة الحياة مبعدة عن الله ، وعقبة فى الطريق إليه ، ينبغى أن يحسب حسابها الدعاة !

حقيقة أن البشرية قد شقيت وتعبت من حمل هذه الحضارة المادية ، والمضى فى متاعها المترف . وحقيقة أن الفساد والانحلال والأمراض العصبية والنفسية ، والشذوذ العقلى والجنسى ، وآثار ذلك كله تنخر فى جسم هذه الحضارة ، وتشقى الأمم والأفراد ، وتفتح الأعين بعنف على الشر والفساد والدمار ..

ولكن البشرية ما تزال فى هياجها الحيوانى ، وفى خمارها الجنونى ، وفى نشوتها المعربدة .. وقد ينقضى هذا القرن كله قبل أن تتفتح العيون

فعلا وتصحو الأدمغة من هذا الخمار، وتكف البشرية أو تفكر فى أن تكف عن هذا الدوار !

* * *

وكانت الجاهليات الأولى قريبة العهد بالبداوة ، فيها فتوة البداوة وجدها على كل حال .

كانت للناس تقاليد ، وكانت أخلاق الفتوة — فى الغالب — تحكم تصرفات الناس .

وعلى قدر ما كانت هذه الفتوة تجعل المعركة بين أصحاب الدعوة وأصحاب الجاهلية قاسية وعنيفة ، فإنها كانت تجعلها مكشوفة وصريحة .. كانت الفطرة قريبة .. تلبي وتجيب ، من قريب ، من وراء العناد والكبرياء .. وكان هناك الجد الصارم فى الكفر أو الإيمان سواء ..

وهذا على كل ما يثيره من المتاعب ، خير من الميوعة والاستهتار وعدم المبالاة !

والبشرية اليوم تعانى من التميع والاستهتار والاستخفاف بكل عقيدة وكل رأى وكل مذهب . كما تعانى من نفاق القلب ، وكيد الضعف وخبث الاحتيال !

وكلها عقبات فى طريق الدعوة إلى الله ، ومعوقات عن الاستقامة على منهج الله .

* * *

وغير هذا كثير من لونه . ومن ألوان شتى ، ينبغى ألا نهون من

شأنه ، كي لا يغتر الدعاة إلى الله بالعوامل المساعدة ، ثم لا يتزودوا كل الزاد . .

ولكن ما الزاد ؟

إنه زاد واحد . . زاد التقوى . . إنه الشعور بالله على حقيقته . . إنه التعامل مباشرة مع الله . . والثقة المطلقة بوعده الجازم الحاسم :
« وكان حقا علينا نصر المؤمنين » (الروم : ٤٧)

والأمر كله هو أمر العصبة المؤمنة التي تضع يدها في يد الله . ثم تمضي في الطريق . وعقيدتها هو واقعها الذي لا واقع غيره ، ومرضاة الله هي هدفها الأول وهدفها الأخير .

وهذه العصبة هي التي تجرى بها سنة الله في تحقيق منهج الله ، وهي التي تنفض ركام الجاهلية عن الفطرة ، وهي التي يتمثل فيها قدر الله في أن تعلو كلمته في الأرض . ويتسلم منهجه الزمام :

« قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » . (آل عمران : ١٣٧ — ١٤١)

وصدق الله العظيم .